www.alkottob.com

شــجرة الــتوت

www.alkottob.com

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتّاب العرب

البريد الالكتروني: E-unecriv@net.sy

mail :
aru@net.sy

موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu-dam.org

❑❑

www.alkottob.com

www.alkottob.com

حسين عبد الكريم

شــجرة الــتوت

- روايـــــة -

www.alkottob.com

من منشورات اتحاد الكتاب العرب

دمشق – 2002

www.alkottob.com

www.alkottob.com

الفصل الأول

في طفولتي رأيت شجرة التوت البرية تمشي باتجاه بيتنا الترابي المخلع، وباتجاه كل البيوت، ورأيتها تلم الجيران تحت أغصانها، ورأيت صاحبها أبا يوسف رجل القرية العتيق، وسمعته يحكي حكايات طيبة عن العيش والأيام، وسمعته يغني أغنيات: تشبه برد الصيف ورنين أصوات المراعي.

في يوم من أيام المدرسة، ونحن نهم بالسير عبر الدرب المؤدي إلى المدرسة، استوقفتنا شجرة التوت... واستوقفنا صوت أبي يوسف وهو يحكي لابن الأحمد وابن الصبرة وابن الصالح:

-هل سافرت يا ابن الأحمد إلى تركيا؟

-لا... لم أسافر...

-وأنت يا ابن الصبرة هل سافرت إلى تركيا؟؟

-لا... لم أسافر...

-أنا سافرت سيراً على قدمي إلى استانبول...

-وكم يوماً بقيت حتى وصلت؟

-سبعة أيام بلياليها... وقبل هذه السفرة سافرت إلى بلاد بعيدة.

أحببنا أنا وسلمان ولد ابن يوسف بو حمود وسمر بنت ابن الأحمد أن نقترب أكثر من شجرة التوت من صوت أبي يوسف وملامحه...

وقفنا خلف حفاف أرض شجرة التوت واحتمينا بشجرة الزنزلخت المجاورة

www.alkottob.com

للدرب خوفاً من أن يمنعنا ابن الصبرة أو ابن الأحمد أو سواهما من أن نسمع حكايات أبي يوسف... رغم أننا لم نمسك بجذع شجرة التوت، ورغم المسافة القصيرة التي بقيت تفصلنا عن أبي يوسف والمصطبة والجالسين عليها، بلغت أعماقنا رائحة أوراق التوتة، وسمعنا جيداً حديث أبي يوسف مع ابن الأحمد وابن الصبرة وابن الصالح،وعاينّا ملامحهم:

سأل ابن الصبرة:

–وكم بقيت يا أبا يوسف في استانبول؟

–بقيت أقل من سنة... كنت لا أنسى شجرة التوت وعشرتها وكأنها معي... وكنت أخاف عليها من اليباس أو العطش...

لم يتم أبو يوسف حديثه، لأن صوت أم يوسف قطع عليه وعلى الجالسين الحديث...

–في عمرك كله لم تترك عادتك... جمعت بيضات الدجاجات كلها، ووضعتها بالسلة، وأخذتها إلى الدكان ورجعت وأنت على المصطبة وابن الصبرة وابن الصالح وابن الأحمد عندك،وحديثكم لم ينته، ودخان سيكاراتكم لا ينقطع، وكأن الدنيا ما فيها إلا شجرة التوتة والمصطبة وشرب الدخان والأحاديث...

شاهدنا– نحن أولاد المدرسة –أمّ يوسف من بعيد واختبأنا في جهة من جهات أرض ابن الحمودة المجاورة لأرض شجرة التوت هرباً من كلماتها القاسية.

قال سلمان ولد يوسف بوحمود:

سلة أم يوسف مملوءة بالأكياس:

ردّت عليه سمر بنت ابن الأحمد:

تكون أعطت البيضات لصاحب الدكان، وأخذت منه حاجات للبيت. بقيت سمر منتبهة إلى مشية أم يوسف المتمهلة جداً، ومنديلها الملفوف على رأسها بإتقان، وشفتيها المتوترتين، حتى يظن من يراهما أنهما تستعدان للبصاق أو لقبلة حربية.

قالت سمر: أم يوسف دائماً تمشي على مهلها، ودائماً لا تضحك لأحد، حتى لأبي يوسف...

قبل أن تصل أم يوسف بادرها ابن الصالح بالحديث:

كنت تبيعين البيضات، وماذا أحضرت معك من الدكان؟

www.alkottob.com

–زادت أم يوسف زم شفتيها وكأن القنبلة الموقوتة تكاد تنفجر...

–أبو يوسف أنهى لف لفافة التبغ في يده، وأشعلها ومسح وجهه بكفيه، وعاد إلى جذع التوتة ومسحه بكفيه، وراح يعاين أغصانها وشكل أوراقها والعصافير المنتشرة في جهاتها، ونسي أن يلتفت إلى جهة الشمال حيث وقفت أمّ يوسف وراحت تبحث عن بيضات الدجاجات وعن الأفراخ... التي لم تستقلّ بعد عن الدجاجات الكبيرة التي فقستها...

بعد أن أنهت أم يوسف جولتها التفقدية وتأكدت من أن بعض البيضات غير موجودة في الأعشاش المخصصة للبيض، ازدادت شفتاها توتراً وازدادت مشيتها تمهلاً، قالت لأبي يوسف:

–أنا أعرف أن عادتك لن تغيّرها، الولد الذي تصادفه ستعطيه إما بيضة، وإما تعطيه الفرنكات التي معك...

أخذ أبو يوسف نفساً عميقاً من لفافته، وابتسم ابتسامة هادئة انسربت من كل ملامحه، وقال:

–يا أم يوسف! بعض الدجاجات ما باضت اليوم...

–هذا عذرك الدائم... أنا متعودة على فنونك...

–تعودّي على فنوني، واسقينا الشاي، وستزداد البيضات.

ضحك ابن الصبرة، فبانت تجاعيد وجهه، ومثله ضحك ابن الأحمد، وابن الصالح. مالت أم يوسف ميلة يمنى وميلة يسرى باتجاه عتبة البيت...

حين دخلت طارت بعض الحمامات طيراناً يسيراً وعادت إلى دوحها، وكأنها بذلك ترحب بأم يوسف وتطالبها ببعض حبات القمح...

اتجهت أم يوسف إلى مصطبة البيت، وصعدتها. أخذت الإبريق المعلق بمسمار خاص به في عمود البيت. عمود البيت يتوسط المصطبة الداخلية، وهو معني بحمل الكثير من الأغراض والحاجات، مسمار علق به طبق القش، وآخر علقت به جرة الزيت، وآخر علقت به حقيبة فناجين الشاي، وإلى يسار العمود يستريح /البابور/ والسراج /وعنبر القمح...

أمسكت أم يوسف الإبريق وملأته من الجرة الموجودة على المصطبة في جهتها الشرقية حيث الحائط، وأقبلت على العمود، فأخذت الحقيبة المخصصة

www.alkottob.com

للسكر والشاي فغرفت بيدها ما اعتقدت أنه يكفي من الشاي ومن السكر، وانتقلت إلى /البابور/ أشعلته على عجل، ووضعت الإبريق عليه، وانتبهت إلى أفراخ الحمام والحمامات الكبيرة.

أعشاش الحمام كان أكثرها داخل البيت، في طاقات خاصة، وكان بعضها فوق العتبة في صناديق وعلب، وبدراية تعرف أم يوسف كل حمامة من حمامات البيت وتعرف صوتها ولونها. وتعرف إن كانت جائعة... وتعرف الأفراخ معرفة حاذقة، فلا يمكن لا أحد أن يضللها عن الأعشاش أو الأفراخ... ولهذا كانت تنشب بينها وبين أبي يوسف معارك دائمة عندما يذبح بعض الأفراخ، ليشويها ويأكلها، أو ليطعم بعض ضيوفه في غيابها.

انتهت أم يوسف من إعداد الشاي وغليه، وأحضرت الفناجين الكبيرة، وحملتها على طبق من قش وخرجت إلى مصطبة شجرة التوت، حيث جلس أبو يوسف وجيرانه يتجاذبون أطراف الحديث وأحياناً يمزقون الحديث وأطرافه بسبب الخلافات التي تنشب بين ابن الصبرة وابن الصالح لكل أمر ولكل شاردة وواردة.

سبق صوت أسعد الشحاذ صوت أم يوسف وطبقها القادم بالإبريق والفناجين...

قال ابن الأحمد:

أسعد الشحاذ عند بيت ابن الحمودة تحت شجرة التوت التي أمام بيتهم.

رد ابن الصبرة: جاء الصوت من جهة الساقية لا من جهة بيت ابن الحمودة.

قال ابن الأحمد لابن الصبرة:

انتظر لحظات، وسترى من أين جاء الصوت. أبو يوسف بعد أن سكت ابن الأحمد قال: صوت أسعد الشحاذ قريب، وآتٍ من جهة قريبة لا من جهة بعيدة، وبيت ابن الحمودة أقرب من الساقية.

بيت ابن الحمودة قريب من بيت أبي يوسف... والأرض التي أمامه تتاخم أرض شجرة التوت، وتكاد لا تنفصل عنها لولا الحفاف الموجودة بين الأرضين...

والدرب المنطلق من أمام بيت أبي يوسف يمر قريباً من بيت ابن الحمودة. بينما الساقية بعيدة عن بيت أبي يوسف، بينها وبين شجرة التوت تترامى مروج وكروم الضيعة... بعد تخم أرض التوتة وبيت أبي يوسف تنهض أشجار زيتون كرم ابن الأحمد، وبعد كرم ابن الحمودة، وقرب الساقية من جهتيها الشمالية

www.alkottob.com

والجنوبية يمتد مرج ابن الصبرة وكرم زيتونه، وبعده إلى الشمال كرم ابن الصالح، وإلى الشرق من الكروم تترامى مراعي ضيعة شجرة التوت وبراريها الفسيحة... ومن المميّز في حياة أبي يوسف وشجراته البرية، أنه كان مولعاً بالمراعي ومساءات الضيعة، وأن تخوم أرض شجرة التوت لا تنفصل عن البراري والمراعي بأي فاصل ولا تنأى عنها مهما اشتد عليها العطش.

شرب أبو يوسف وجيرانه فناجين الشاي التي قدمتها أم يوسف بسرور وبهجة، لأن أبا يوسف عاد إلى حديث الأيام وشجرة التوت:

هل تعرفون أنني أيام سفري وعملي في البلاد البعيدة اختلفت أنا والناظر علينا...

قال لي:

-أنت مقصّر في عملك.

-لا أنا ماقصّرت...

-سأجعلك تتوب... وتترك عملك... وتسافر إلى بلدك...

في ذلك اليوم لم أستطع أن آكل من شدة غيظي من أمر ذلك الناظر... لكنني في وقت الهاجرة والناس يأكلون رقدت رقدة سريعة واستيقظت، فأحسست أن شجرة التوت أمامي وأنّ الناظر يحاول أن يقطع أغصانها ويقتل عصافيرها ويهدم المصطبة التي إلى جوارها. حاولت أن أقف في وجه الناظر وأضربه، لكنني في أول الأمر كنت أضعف من أن أفعل أي شيء، خفت أن تنتهي شجرة التوت، وتنتهي رائحتها وعشرتها مع الجيران والبراري القريبة منها...

وقبل أن يقطع أغصانها رأيتها تختفي في جهة لم يستطع الناظر معرفتها وتحديدها، وأحسست أنني اختفيت معها، وأن الناظر فشل في بحثه عني وعن شجرة التوت... وأن بصيرته عميت عني وعنها وعن القرية، وبعد أيام قليلة عدت من سفري، وكانت أم يوسف ولدت يوسف...

توتة أبي يوسف متميزة بملامحها ونشأتها وحياتها عن سائر أشجار التوت في القرية... فهي برية وقديمة، ولا يعرف بالتحديد تاريخ ظهورها، وهي واسعة الأغصان وقوية الجذع... ابن الأحمد لم يجلس مرة عند أبي يوسف إلا أخذته الدهشة إزاء جذع شجرته القوي... وقد سأل ابن الصالح وابن الصبره عن سر ذلك.

أبو يوسف نهض ودخل إلى البيت، ليملأ علبة الدخان، وابن الأحمد راح

www.alkottob.com

يتأمل جذع التوتة المتين والراسخ، ولم يقطع تأملاته إلا صوت ابن الصالح:

–أين رحت يابن الأحمد؟؟

–إنني متعجب من أمر هذه التوتة يابن الصالح.

قال ابن الصبرة:

–أنا مثلك أتعجب من قوة وكبر هذه التوتة، فلا يوجد في كل القرية، ولا في القرى التي زرتها شجرة بقوتها وكبرها وقدمها.

رد ابن الصالح:

ويزيدها قوة وخيراً أنها في مكان قريب من المراعي وقريب من كل الدروب، وتحت أغصانها تجتمع نساء القرية لقشر القمح في الجرن القديم... نظر ابن الأحمد إلى يسار التوتة حيث أشار ابن الصالح، ليعاين جيداً الحجر المنقور الموجود خصيصاً لقشر القمح.

عاد ابن الأحمد إلى الكلام:

ولا ننسى يا ابن الصالح أن الديار بسكانها، والشجر بأصحابه، وأبو يوسف من الرجال العتيقين في قريتنا، ومن الرجال الأشدّاء والكرام.

قال ابن الصبرة:

أنا لا أعرف أن أنظر إلى شجرة التوت إذا لم يكن أبو يوسف قربها... منذ أيام /الولدنه/ وأنا أرى شجرة التوت الكبيرة وأرى قرب جذعها أبا يوسف وأشاهد دخان لفافته وفنجان الشاي الكبير أمامه أو في يديه، والنساء يتواردن ومعهن القمح، ليقشرنه في الجرن تحت أغصان التوتة...

أم يوسف لم تسمع إلا كلمات قليلة، لأن النعاس ملأ عينيها فنامت على الحصير الممدّد على المصطبة الداخلية، وقد عرف أبو يوسف ذلك جيداً، عندما انقطع صوتها، وانقطعت ميلاتها، وسكتت أسئلتها الملحاحة بشأن البيضات وأفراخ الحمام، وجرن القمح وجرن الدجاجات... وعندما دخل إلى البيت وألفاها نائمة قال في نفسه:

"نشرب الشاي على مهل، ونلف اللفافات دون أن نسمع تقريع أم يوسف

وشكواها من الدنيا ومن الأزواج الذين لا يوفرون بيضات الدجاجات، وأفراخ الحمام.

www.alkottob.com

ملأ أبو يوسف علبته تبغاً ورجع أدراجه بتؤدة كي لا يوقظ أم يوسف... هبط المصطبة واتّجه إلى الباب، وعيناه الضيقتان قليلاً ترقبان كل شيء أمامه حذراً من أن تصطدم قدماه بشيء، ولو بحبة تراب لا أهل لها ولا وطن. قامته المحنية بعض الشيء من ثقل الشقاء وهموم السنين لم تذهب ببهاء أبي يوسف، بل زادته حناناً وحباً للناس وزادته احتراماً بين جيرانه... وهو يخرج من باب البيت كانت آثار السنين بادية على ملامحه... قامته أتعبتها ضربات الدنيا، وتجاعيد وجهه ازدادت، وأنامله لم تعد قوية مثلما كانت أيام الشباب، قبل أن يعبر عتبة البيت أمسك بطرف /قمبازه/ الطويل ولمه ورفع حاجبيه، ليرى حالة الجو ويعرف كيف انتشرت الأجنحة في فضاء شجرة التوت، وليتبين إن كان جرن الدجاجات مملوءاً ماءً...

جرن الدجاجات يتوسط الساحة المجاورة للمصطبة، وهو باد لكل دجاجة تود أن تشرب، وجوانبه ليست مرتفعة، فهو مسطح وليس عميقاً، ليسهل على الدجاجات والأفراخ أن تشرب منه.

مشي أبو يوسف بحذاء حفاف المصطبة، عبر الدرب الضيق المؤدي إلى الساحة، فرأى أن جرن الدجاجات غير مملوء، فأقبل على الجرة الكبيرة المتكئة على حائط الساحة الغربي، أخذ عنها غطاءها النحاسي المجوف، وملأه ماء، وسكبه في جرن الدجاجات، وأعاده إلى فم الجرة.

كان الحر شديداً، لكن مصطبة شجرة التوت، لم تبعث على الشعور الثقيل بالحر، فأغصان التوتة لم تبخل برفيفها الحنون الدائم.

لم يجلس أبو يوسف على المصطبة فور صعوده إليها، لأنه لمح زوجة ابن الصبرة قادمة، وعلى كتفها كيس مملوء قمحاً...

قال بصوته الرصين والعفوي:

جاءتك أم محمود يا ابن الصبرة.

قال ابن الصالح:

عرفتْ في أي وقت تجيء...

قال ابن الأحمد:

-فعلاً استطاعت أن تمسك بك حياً ترزق لتساعدها في قشر القمح شئت أم أبيت...

www.alkottob.com

جلست زوجة ابن الصبرة قرب الجرن، وأمسكت بالحجر المخصص لدق القمح المبلل قليلاً بالماء، وابن الصالح استأذن من أبي يوسف، ومشى نزولاً عبر درب المروج والكروم.

قال ابن الأحمد لأبي يوسف:

–ابن الصالح شاب وشبابه كيّس، والدنيا لم تطعنه بعد كما طعنتنا...

قال ابن الصبرة وهو يهم بالإقبال على الجرن لمساعدة أم محمود زوجته: ابن الصالح جاري منذ سنين طويلة. أنا أعرفه وهو طفل.

رد ابن الأحمد:

–فعلاً بيتك وبيت ابن الصالح متجاوران من سنين وسنين... أنا أذكر بيت والدك وبيت والده قبل خمسين سنة تقريباً. كان حائط بيتكم يلاصق حائط بيتهم... وأرضكم مجاورة لأرضهم... وأبو يوسف يعرف أكثر مني تاريخ ابن الصبرة وتاريخ والده وتاريخ زواجه...

–قال أبو يوسف بصوت خفيض لكنه واضح:

فعلاً –يا ابن الصبرة– بيت أبيك وبيت ابن الصالح متجاوران فعلاً من أيام بعيدة... والدك في أيام كثيرة كان حين يتعب من الفلاحة في أرض الساقية، يتجه إلى حيث يكون والد ابن الصالح في أرضه التي على الساقية قرب أرضكم، ليلف سيكارة من علبته... وأذكر يوم تزوجت أنت من أخت يوسف بوحمود صاحب الدكان، وأذكر يوم تزوج ابن الصالح من بنت أخ أم يوسف، ويومها أعطاه، أو لنقل أعطى بنته –الأرض التي قرب بيتك يا ابن الأحمد...

صمت ابن الأحمد وقال:

صدّقني يا أبا يوسف إن قصة أرض ابن الصالح التي قرب بيتي كانت غائبة عن بالي، وكنت ناسياً أن أخ أم يوسف هو الذي أعطاها له.

ملامح ابن الأحمد متجهمة صارمة، لا يبتسم إلا في أوقات نادرة، وابتساماته تنبثق كسولة خاملة، حتى يعتقد الناظر إليه أنه يقرر أن يصرخ أو أن يبكي لا أن يبتسم، وحاله هذه لا تودعه لا في الصيف ولا في الشتاء، ولا في الصباح ولا في المساء. وتزداد توتراً ومهابة وصرامة أمام أولاده.

نظر إليه أبو يوسف فتبدى له صارماً، فقال له:

–أعجب من أمرك يا ابن الأحمد. إنك توحي لمن يراك لأول مرة أنك

www.alkottob.com

ستبكي... وأنا أعتقد أن الطيور لا تجرؤ على الاقتراب منك إذا كنت غاضباً.

صمت ابن الأحمد، بينما أبو يوسف انشغل بلف لفافة تبغ جديدة، وابن الصبرة راح يدق القمح بالحجر الأملس المخصص لدق القمح وقشره.

يدا ابن الصبرة ليستا قويتين بحيث تليّن القاسي، لكنهما قادرتان على حمل حجر الجرن وإعادته، ومثله أم محمود زوجته، فكلاهما يشبه الآخر بالهيئة والمتانة... وبالقد والبدانة والنحول... ابن الصبرة وأم محمود لم يستفيدا من دهرهما إلا السمرة الفائضة عن الحاجة والشقاء الدائم، لكنهما مع كل التعب الذي ينتظرهما كل يوم فحالهما ميسورة قليلاً وأرضهما قريبة من بيتهما. بعد أن عرق ابن الصبرة وتعب، نزع الشملة عن رأسه، واستند إلى جذع التوتة الراسخ، ومدّ رجليه ليستريح ونفخ نفخة عالية وعميقة، وكأنه يطرد من صدره الغيظ والشقاء...

استلمت أم محمود حجر الجرن وراحت تدق القمح بكل ما أوتيت من قوة... ضربات حجر الجرن كانت تشغل الصمت وتقطعه... قدم أبو يوسف لابن الصبرة علبة التبغ ودعاه ليلف منها سيكارة:

-خذ لف سيكارة وجرّب دخان علبتي.

-بارك الله فيك وبعلبتك...

***

www.alkottob.com

www.alkottob.com

الفصل الثاني

تسلّق ابن الصالح إحدى شجرات الزيتون في أرضه المقابلة لبيت ابن الأحمد بحثاً عن الأغصان اليابسة، ليقطعها ويريح منها الزيتونة. نظر إلى بيت ابن الأحمد، فظهرت له المصطبة الترابية التي أمام البيت، وظهرت له الأغراض المنتشرة في جنباتها، وظهر له البساط المفروش على امتداد المصطبة تقريباً...

لمح سمراً بنت ابن الأحمد وأختها رباباً وهما تقشران حبات البطاطا استعداداً لإحضار الغداء.

لم يلبث ابن الصالح على حاله طويلاً حتى باغته صوت ابن الأحمد القوي كالصراخ، وهو ينادي زوجته:

-يا زهوة... يا زهوة...

ردّت زهوة من جهة البيت الشرقية، حيث كانت تجمع العيدان اليابسة لتجعلها وقوداً للتنور في المساء:

-نعم... ماذا تريد؟

-أنا هنا عند الدكان.

-أنا قادمة إليك.

قمطت زهوة رأسها بمنديلها الحريري المرقع، واتّجهت مسرعة عبر الدرب الترابي المؤدي إلى الساقية، فالدكان حيث جلس ابن الأحمد.

صوت سمر ورباب كان مسموعاً بالنسبة لابن الصالح وهو يقطع عيدان الزيتونات اليابسة. قالت سمر: أنا خائفة يا رباب!..

لم تجبها رباب لأنها لا تعرف أن تجيب، فهي تفهم بقشر البطاطا وحمل

www.alkottob.com

الماء من النبع وشرب الشاي، أما أن تعطي رأياً بالخوف من المستقبل والأيام، فذلك أمر لا علاقة لها به، ولعلها لم تتعلم في عمرها أية كلمة من هذا القبيل...

رباب عكس سمر تماماً، عاشت سنواتها معزولة عن القراءة والكتابة والدنيا والآخرة، فهي لا تعرف أبعد من النبع وبيت أبي يوسف... تذهب إلى النبع لتملأ الجرة ماء، وإلى بيت أبي يوسف لتشتري البيض من أم يوسف، أما سمر فقد قرأت مع أولاد القرية ونجحت في صفوف الدراسة الأولى، وانتقلت إلى المرحلة الثانية.

وهي زيادة على ذلك صبية الصبايا، وهي كما تقول عنها أم يوسف: "سمر سبقت عمرها بجمالها ولباقتها ومعرفتها بشؤون الدنيا، لكن والدها قاسٍ في طباعه، ولا يعرف الشفقة لا عليها ولا على رباب ولا على بقية إخوتهما".

بيت ابن الأحمد محاط بأشجار المشمش والزنزلخت ومصطبة بيته واسعة، لكن قسوته وصرامة ملامحه لا تسعد جليسه، ولا تريح أولاده، ولا تترك لهم أن يعيشوا كأولاد الجيران.

نهضت سمر ونظرت إلى جهة الدرب لترى إن وصل والدها، فبدت لها شجرة توت أبي يوسف... ظهرت لها ملء المدى... ولمحت أبا يوسف قادماً من جهة الساقية الجنوبية حيث أرض وبيت ابن الصبرة وأرض وبيت ابن الصالح... لمحته يمشي كعادته متمهلاً وفي يده لفافة التبغ المشتعلة...

قالت سمر في سرها: "شجرة التوت تتصدر أفق القرية بأغصانها وعصافيرها وزهوها وفتنة الجلسة إلى جوارها، وأبو يوسف قامة تزرع الدروب بهجة، ومعاشريه شعوراً بالارتياح. قرب شجرة التوت يلتقي الجيران، ومن أمامها تمر الدروب وأكثر من هذا هي ذاكرة لا تنسى شيئاً، وعلامة فارقة في تاريخ القرية وأحداثها وتغيراتها. نادى ابن الصالح بأعلى صوته:

-يا ابن الصبرة.

-نعم يا ابن الصالح.

-ماذا تشتغل عندك؟

-أفلح أرض الزيتونات.

أبو يوسف سمع صوت ابن الصالح وابن الصبرة لكنه لم يقف، بل تابع مشيته المتمهلة باتجاه شجرته ومصطبته وبيته. على بعد أمتار من أرض ابن الصالح بيت ابن الأحمد وبعده مباشرة الدرب المنطلق باتجاه شجرة أبي يوسف

www.alkottob.com

وبيته...

ابن الصالح يعرف سمراً جيداً، ويعرف أنها من الناجحات في الدراسة ويعرف أنها صبية يتمناها أي شاب في القرية. أشجار المشمش والزنزلخت والمصطبة تجعل من بيت ابن الأحمد متميزاً في القرية لكن ابن الأحمد قاسٍ... وقسوته تذهب بكل جمال..

بقيت سمر واقفة ترقب أبا يوسف وهو يتقدم باتجاه شجرة التوت... وقد تمنّت أن تقترب منه وأن تسمع حكاياته عن السفر وعن الأيام... وأن تجلس على المصطبة قرب جذع الشجرة الراسخة... إنها منذ كبرت وشبّت، أحبت عشرة أبي يوسف وشجرة التوت المجاورة لبيته، ومثلها كل الأولاد وكل الجيران أحبوا عشرة أبي يوسف وشجرته البرية...

حمل ولد يوسف بوحمود صاحب الدكان سلة قصبيّه، واتجه شرقاً عبر الدرب المنطلق من أمام بيت كريم... نادى ولد كريم:

-يا حسان!

-خرج حسان مسرعاً:

نعم يا سلمان ماذا تريد؟

-ما رأيك بالذهاب إلى شجرات التين؟

-أذهب معك... انتظرني قليلاً...

دخل حسان إلى الغرفة الترابية الوسيطة، حمل سلة قصبية صغيرة كانت فوق المصطبة وخرج باتجاه رفيق الطفولة وأيام المدرسة سلمان ولد يوسف بوحمود...

مشى سلمان ومن ورائه حسان عبر الدرب الضيق المؤدي إلى زاوية أرض شجرة التوت الشمالية الغربية... عند طرف الدرب الضيق القصير المؤدي إلى زاوية أرض التوتة تنتشر بعض أشجار الزنزلخت الصغيرة، وبعض شجيرات التوت...

قبل أن يصلا إلى الزاوية حيث الدريب المؤدي إلى ساحة شجرة التوت، والدروب، لمحا ولد ابن الحمودة، وتمنّيا أن يذهب معهما، لكنهما قدّرا أنه منشغل برعي البقرة، أو بإصلاح حذائه المنكوب...

قال حسان:

www.alkottob.com

–ولد ابن الحمودة مشغول إمّا برقع حذائه وإمّا برعي بقرة والده...

قال سلمان:

معنى كلامك أن لا ننادي عليه ليذهب معنا إلى شجرات التين التي في أرضكم أو أرضنا...

تابع حسان وسلمان السير عبر الدرب حتى بلغا زاوية أرض شجرة التوت، كما سمتّها القرية كلها بنسائها ورجالها وأولادها وبذاكرتها...

الدرب القادم من جهة بيت كريم والد حسان ومن جهة بيت يوسف بوحمود والد سلمان يلتقي عند زاوية أرض شجرة التوت، بالدرب القادم من جهة بيت ابن الحموده ومن جهة الساقية الشمالية والدكان. سلمان وحسان انعطفا إلى جهة شجرة التوت عبر الدريب الصغير، وبقي الدرب القادم من جهة الساقية وبيت ابن حمودة مقفراً إلا من بعض الطيور التي راحت تبحث عن شيءٍ تنقره إما لتأكله، وإما لتحمله في منقارها لتبني به أعشاشها...

قال حسان: أبو يوسف نائم على الحصير المفروش على مصطبة شجرة التوت، وأم يوسف موجودة في البيت.

–تكون أم يوسف نائمة في البيت على المصطبة الداخلية.

–في هذا اليوم الحار تنام على المصطبة مثل أبي يوسف.

نظر حسان إلى أبي يوسف، وهو نائم وقال:

عينا أبي يوسف النائمتان كم يبدو عليهما التعب يا سلمان...

–هو شقي كثيراً في حياته يا حسان.

–لكنه رغم تعبه القديم في الفلاحة والسفر ورغم فقره فهو لا يمرض، ولا يترك الدخان وشرب الشاي وأكل /القمحية/ المتبلة باللبن.

عبر حسان وسلمان شجرة التوت وأبا يوسف إلى حيث شجرات التين دون أن يحدثا أية ضجة أو فوضى، حتى إنهما أسرعا في مشيتهما دون إصدار أية أصوات قوية خشية أن تخافهما العصافير التي على أغصان التوتة، وتطير مسرعة، فتصدر بخفق أجنحتها صوتاً قد يوقظ أبا يوسف ويزعجه...

عندما وصلا إلى شجرة تين أنزلا سلتيهما القصبيتين، وراحا ينظران في جهات الأغصان بحثاً عن الثمرات الناضجة...

قال سلمان:

www.alkottob.com

–انظر إلى ابن الصبرة، إنه يفلح أرضه القريبة من ساقية المراعي... ومعه ولده حمدان...

–حمدان يزيدني سنتين... وأنت كم سنة يزيدك؟؟

–يزيدني سنة ونصف السنة، لكنه لا يزيدني في الدراسة إلا صفاً واحداً... هو في الحادي عشر وأنا في العاشر...

–وسمر بنت ابن الأحمد كم تزيدك؟؟

–تزيدني سنة فقط، وهي في صف ولد ابن الصبرة.

–لكن من يراها يعجب من أمرها وأمر حسنها، فهي صارت صبية كبيرة وجميلة.

–وهي تسبق ولد ابن الصبرة بالعلامات... والنجاح.

–وابن الحمودة كم يزيدنا؟؟

–ابن الحمودة يزيدنا أربع سنوات تقريباً وهو الآن في الجامعة...

انقطع حديث سلمان وحسان لأن صوت ابن الأحمد جاء قوياً ناقماً وهو ينادي سمراً...

–يا سمر أين أنت؟

–أنا هنا عند أمي أساعدها بتقريص العجين.

تعالي واغلي الشاي بسرعة.

نظر حسان وسلمان إلى جهة بيت ابن الأحمد، فألفيا سمراً تقبل مسرعة باتجاه والدها...

قال حسان:

والد سمر صعب في حياته، وصوته قوي يا سلمان.

–ولا يطعم أولاده من الأكلات التي يحبها.

قالت لي سمر: "تصور يا حسان: أن والدي يضع علبة الحلاوة في صندوق الأحذية، ويقفل عليها كي لا نأكل منها... ولا يسمح لأحد منّا أن يشرب الشاي إلا في حضوره، ويضربنا ضرباً قوياً إذا علمَ أن واحداً منّا أكل حبة مشمش واحدة، عن شجرات المشمش دون رغبته وإرادته وأوامره"...

وصلت سمر إلى حيث جلس والدها وابن الحمودة، وهي خائفة أشد الخوف

www.alkottob.com

من أن يضربها لاعتقادها أنها تأخرت في الركض إليه.

قال لها بصوت متوسط القوة:

–أسرعي واغلي لنا إبريقاً من الشاي.

–قال له ابن الحمودة:

–لا داعي للشاي ولا لغيرها.

كان المساء يحبو كسولاً، وكانت دجاجات أم يوسف تأخذ دربها باتجاه ساحة البيت، حيث نثرت أم يوسف لها بعض حبات القمح وراحت تنادي...

تعاه تعاه تعاه... بيتي... بيتي... بيتي...

وكانت الدجاجات تلبي النداء راكضة باتجاه أم يوسف... بعضها ركض عبر الدريب المنسرب بين حفاف أرض التوتة وبين جرن قشر القمح والمصطبة، وبعضها لم ينتظر أن يعبر من هذا الدريب المغطى بأغصان التوتة والمحوط بحفاف الأرض وحفاف المصطبة، بل تراكضت من جهة المصطبة الشرقية، تاركة (مصعها) على المصطبة كهدية رمزية للجيران أو لأم يوسف، التي ستقوم بكنسه...

وكان شعر سمر يتأرجح كغابة سوداء صغيرة مع النسيم وهي تساعد أمها بالخبز، على التنور، المجاور لشجرة الزيتون الكبيرة، والقريب من الدرب الواصل بين بيت ابن الأحمد وبيت ابن الحمودة وشجرة وبيت أبي يوسف...

وكانت زوجة ابن الحمودة تسعى في جهات الأرض القريبة من البيت بحثاً عن شيء أضاعته، أو عن طائر سقط من أفق شجرة التوت... في هذا الوقت كان سلمان وحسان ملأا سلتيهما تيناً، وعادا باتجاه الدرب وشجرة أبي يوسف.

قال سلمان:

ما أشهاها رائحة الخبز الساخن، المخبوز على نار الحطب!!

رد حسان:

–وتزداد رائحته طيباً، إذا كانت سمر ترققه بيديها...

صمت سلمان، وراح يتأمل كلمات حسان، قال في سره: "فعلاً سمر تطيّب الخبز إذا رققته بيديها، وتزيده لذة... لكن الذي يحيرني في كلمات حسان... أنها كلمات عميقة وقد يكون قرأ رسالتي التي وضعتها لها في الكتاب منذ أيام"...

قال حسان:

www.alkottob.com

مالك يا سلمان لا تتكلم... ها قد وصلنا إلى تخوم بيت أبي يوسف... وها شجرة التوت خضراء وارفة الأغصان، والعصافير منتشرة في جهاتها... وصوت أبي يوسف مسموع:

-أنت يا بن الصالح قصتك مع زوجتك قصة، تختلف معها على كل شيء...

-أنا لا أتحمل ولا أصبر مثلك يا أبا يوسف... سمعته أم يوسف فجاء صوتها كالبارود:

-أنت با ابن الصالح لا تستحق النعمة... زوجتك خير الزوجات، لكنك أنت لا تشكر...

قال أبو يوسف بصوت خفيض:

-اسكت أحسن من أن تنال حسابك من لسانها...

-لو عرفت أنها مستيقظة لما تكلمت كلمة وحدة عن أموري مع زوجتي...

-وأنا مثلك اعتقدت أنها نائمة، وهي ربما كانت نائمة، لكنها كالخلد تسمع وهي مغمضة عينيها، وخاصة إذا كان الكلام يخصها أو يخص أي واحد من أقربائها...

قطع حديث أبي يوسف وابن الصالح سلام حسان وسلمان:

السلام عليكما:

قالها سلمان وحسان معاً

ورد ابن الصالح وأبو يوسف السلام معاً أيضاً:

-وعليكما السلام

وزاد أبو يوسف:

وطيب الكلام، وتفضلا بالجلوس قرب ابن الصالح المقدام، الذي لا يضام، إلا من زوجته حين تنام، ومن عمتها أم يوسف التي لا ينقطع صوتها كالحمام... وقبل أن يجلسا جيداً، خرج صوت أم يوسف:

-أنت يا أيا يوسف لا تعرف أن تسكت... خاصة وقت يكون ابن الصالح.

فقال لها أبو يوسف: -عندي الآن ابن الصالح، وسلمان ولد صاحب الدكان وحسان ولد كريم اليقظان، ومعهما من التين سلتان ممتلئتان، فهل لك أن تأتي وتأكلي وتريحي من صوتك الأنام؟!.

www.alkottob.com

اقترب حسان وسلمان من أبي يوسف، فبدا لهما وجهه المتعب، وبدت تجاعيده، وبدت عيناه الضيقتان، وشفتاه المشققتان ويداه المرهقتان.

قدما له سلتي التين. قال له حسان:

-نتمنى أن تأكل من سلتينا وأن تحكي لنا...

-سآكل بعض الثمرات الناضجة، لأن أسناني لم تعد قادرة مثل أسنانكم على أكل الثمرات الفجة غير الناضجة، وسأحكي لكما ولابن الصالح عن ابن الأحمد وقصتي معه ومع الطيور والدبق...

ابن الأحمد منذ شبابه المبكر لا يعرف أن يعيش إلا كما يعيش الآن، يشتري بكل ما يملك ويأكل فيه، وعندما لا يجد شيئاً يأكله، يحمل قضبان الدبق ويتجه إلى أشجار التوت لينشر فيها الدبق، ويمسك العصافير ويذبحها، وينتفها ويطبخها بالزيت ويأكلها وحده لامع أحد من أهل بيته ولا من أهل ضيعته إلا مع من يوافق طبعه طبعهم...

في يوم من أيام بؤسه الشديد وإفلاسه وجوعه، حمل قضبان الدبق واتجه إلى هنا إلى شجرة التوت...

سألته: أراك تحمل قضبان الدبق، معنى ذلك أنك لا تملك ما تشتري به حلاوة أو غيرها...؟

-أنت أدرى بحالي يا أبا يوسف.

-وما الذي جاء بك إلى هنا، وأنت تعرف أن شجرة التوت هذه بريئة، وعصافيرها أقل من عصافير سواها من الأشجار...

وهل مثلاً جربت طيور أشجار الدلب التي على الساقية؟!..

جربتها مرات عديدة، وكنت لا أوفّق كثيراً، في إمساك الطيور، لأن النبع قريب منها، والقادمون إلى النبع لا ينقطعون...

-وهل تعتقد أن القادمين إلى شجرة التوت سينقطعون؟...

-ربما يحالفني الحظ عندك وأمسك ببعض الطيور الكبيرة، فتكون طعاماً شهياً لأخيك ابن الأحمد...

-سأسمح لك بنشر قضبان دبقك على مضض يا ابن الأحمد.

-ولماذا على مضض؟؟

-لأنني لا أتمنى أن تقتل عصافير شجرة التوت هذه، فالطير خير وبركة،

www.alkottob.com

وأنا أرتاح للتغريد في الأصباح والهواجر والإمساء...

لكن ابن الأحمد يا ابن الصالح ويا سلمان ويا حسان نفذ رغبته، نزع حذاءه الجلدي من قدميه، وتسلق جذع التوتة بصعوبة، وغامر ونشر قضبان الدبق في أنحاء شجرة التوت، ونزل وجلس على المصطبة... لف لفافة دخان عريضة، وأشعلها وراح يعب منها أنفاساً عميقة وينظر إلى القضبان والطيور.

بقيت القضبان منشورة أكثر من ساعتين، لكنها لم تمسك العصافير.. ومن بين الطيور التي كانت في جهات شجرة التوت طائر أخضر الجناحين كبير، بقي طوال الوقت، يحلق في سماء التوتة ويغرد تغريداً بعيداً حزيناً ثم يعود وينظر إلى قضبان الدبق، ومن ثم يحلق ويغرد تغريداً حزيناً...

وعندما يئس ابن الأحمد من قضبان الدبق، تسلق الجذع وجمع القضبان، وانتعل حذاءه وراح محزون البال تعيس الحال، والطائر الكبير أخضر الجناحين حلق بعيداً، واختفى أياماً متتابعة، لا يقترب من التوتة، لا نسمع تغريده ولا نرى جناحيه، ويومها قلت لابن الأحمد:

بقضبان دبقك خسرنا الطائر الكبير وتغريده الحنون وجناحيه الكبيرين الأخضرين.

فرد عليّ يومها ابن الأحمد:

أنت تفسر أمور الطيور وشجرة التوت وكأنها مثل الأنبياء... طول بالك يا أبا يوسف!

غياب الطائر الكبير ليس قضية القضايا...

-لا يا ابن الأحمد... لا تتسرع في إطلاق أحكامك... ولا تجعل من بطنك محط اهتمامك وشغلك الشاغل...

***

-هل شاهدت، الآليات التي جاءت،وبدأت تسد الساقية الشمالية يا أم يوسف؟

-سمعت أصواتاً قوية وغريبة لكنني لم أعرف ما هي هذه الأصوات، ولا من أين جاءت...

-إنها أصوات الآليات التي تسد الساقية...

دار هذا الحديث السريع بين أم يوسف وزوجة ابن الحمودة، وأصوات

www.alkottob.com

الآليات التي تحفر الساقية وتردم التراب لتجعله سداً في وجه الماء قوية ترج وتمزق هدأة وطمأنينة قرية شجرة التوت ومراعيها وينابيعها كما جاء على لسان ولد ابن الحمودة...

أم يوسف وزوجة ابن الحمودة أخذهما حديث السد الجديد على الساقية الشمالية، وولد ابن الحمودة وابن الصالح وابن الصبرة أيضاً أخذهم الحديث عن أيام الساقية والينابيع وأحمال الحطب، والسد الذي سيحقن وراءه الماء.

سأل ولد ابن الحمودة أبا يوسف:

-ما رأيك أبا يوسف بهذا السد الجديد الذي سيجمع الماء وراءه؟

-هذا السد يا بني أمره عجيب مثل بطن ابن الأحمد...

نظر ابن الصالح وابن الصبرة بدهشة إلى أبي يوسف...

سأل ابن الصبرة:

-ما علاقة السد ببطن ابن الأحمد؟؟

-بطن ابن الأحمد إن امتلأ ارتاح، وإن لم يمتلئ فقصته قصة وغصته غصة، لكنه في أيام كثيرة لا يمتلئ إلا بالطيور المطبوخة بالزيت، التي يحرمنا من أنسها وتغريدها، والسد لا يمتلئ إلا بعد أن يحرمنا من ماء الينابيع وقد تنتشر فيه الأفاعي، وقد يغرق فيه بعض أولادنا...

سمع ابن الصبرة وابن الصالح وولد ابن الحمودة كلمات أبي يوسف، وامتلؤوا بصداها ورنين حروفها، وأخذتهم هواجسهم بعيداً... وخافوا خوفاً شديداً من خراب الينابيع وانتشار الأفاعي...

زوجة ابن الحمودة قالت لأم يوسف:

-أنا غير مطمئنة لهذا السد يا أم يوسف.

-طولي بالك، واطلبي الخير ولا تطلبي الشر.

***

امتلات القرية بضجيج الآلات وغبار حفرها، وخافت هواجس جيران شجرة التوت... وصارت عيونهم معلقة بجهة بيت أبي يوسف وشجرته.

زوجة ابن الحمودة قالت لأم يوسف:

www.alkottob.com

–صرت لا أتجه إلى أية جهة أو إلى أي بيت قبل أن أعاين شجرة التوت، خوف أن يصيبها غبار الحفريات.

–أنت مثل أبي يوسف تحسبين لهذه الشجرة حسابات غريبة وعجيبة.

–لا أعرف لماذا أنا متعلقة كثيراً بهذه التوتة، بأغصانها برائحة أوراقها بالطيور التي تجيء إليها... حين سافر ولدي لم ينس أن يودع أبا يوسف وشجرة التوت... وقال لي قبل السفر بيوم واحد:

أتمنى يا أمي أن تحدثيني عن شجرة التوت وعن أبي يوسف:

"أنا يا ولدي لا أعرف هذه التوتة إلا كبيرة وواسعة الأغصان، ولم أشاهدها في يوم من أيام الصيف إلا ممتلئة بالطيور، ولم أشاهد مصطبتها إلا مزدحمة بالجيران... إن لم يكن عند أبي يوسف ابن الصبرة وابن الصالح، يكون عنده ابن الأحمد ويوسف بوحمود وأبوك...

أبو يوسف يا ولدي –في شبابه– كان يلقى الرجال ولا يهاب، وكان يجلب صيده من كف الوحوش، وكانت حالته تعيسة، وكان يركض الليل والنهار وراء اللقمة ورغيف الخبز، وكانت شجرة التوت يفيء إليها الناس في الصيف وتعطي الضيعة صورة حسنة.

والدك وابن الصبرة وابن الصالح وابن الأحمد ويوسف بوحمود وكل الجيران لا يعرفون هذه الضيعة إلا وشجرة التوت موجودة فيها، وأغصانها تملأ الأفق.

ابن الأحمد من أقسى الرجال وأصعبهم، وهو لا يذهب إلى بيت أحد في القرية، لكنه، يزور شجرة التوت، ويقعد مع أبي يوسف ويسمع أحاديثه وفي الأيام التي ينزل فيها إلى المدينة لشراء الحاجات، لا يصل إلى بيته إلا بعد أن يرتاح عند التوتة وأبي يوسف على المصطبة الترابية".

درب ليس واسعاً تحف به أغصان الزيتون والتين يصل بيت ابن الأحمد ببيت ابن الحمودة وبيت أبي يوسف وبقية البيوت...

انطلق ابن الأحمد عبر درب القرية من خلفه زوجته المصونة، تحمل على كتفها اليمنى كيساً أبيض مملوءاً بالتفاح وعلب الحلاوة، وبحذاء وشحاطة ذات قد ومد.

www.alkottob.com

اشتهر ابن الأحمد بهذه الطريقة الغريبة بالعيش، وبإحضار الحاجات، والاحتفاظ بها. قد يجمع في كيس واحد التفاح والأحذية، وقد يخبئ في صندوقه الخشبي العجيب علبة حلاوة وحذاء أتت عليه يد الخراب.. بعد وقفات قصيرة مع الجيران الذين صادفهم ابن الأحمد وصل إلى مصطبة شجرة أبي يوسف جاره العتيق، ووصلت معه زوجته:

-قال أبو يوسف:

-أهلاً بابن الأحمد وزوجته المعذبة بأكياسه.

رد ابن الأحمد:

-هذا قدر من يحبون بطونهم.

-وماذا جلبت اليوم في هذا الكيس؟؟

-جلبت التفاح والحلاوة وحذاء وشحاطة... قال ابن الصبرة:

-ابن الأحمد لا يعيش إلا على كيفه.

نظرت زوجة ابن الأحمد إلى ابن الصبرة نظرة عاتبة، وكأنها قالت له بعينيها:

لماذا لا تعيش أنت مثل ابن الأحمد بما أنك معجب بحياته وعيشه؟!.

قال أبو يوسف:

-ابن الأحمد مثل أم يوسف طباعه صعبة، ونفسه قاسية لا تعرف اللين.

قال ابن الصبرة:

-معنى ذلك أن أم يوسف متحكمة بك كيف تشاء.

-لا يابن الصبرة... صدور الرجال أعند من الصخور، فكيف إذا كان واحد من هؤلاء الرجال هو صاحب شجرة التوت البرية العتيقة؟!

أنت على حق يا أبا يوسف.

سألت زوجة ابن الأحمد:

-أين أم يوسف؟

-ذهبت لمشاهدة بنت أخيها زوجة ابن الصالح... قال ابن الأحمد:

-معنى ذلك أننا لن نشرب الشاي؟

-نشرب الشاي، وإذا أردت نأكل التفاح من كيس ابن الأحمد. ضحك ابن

www.alkottob.com

الصبرة ضحكاً عالياً ومثله ضحكت زوجة ابن الأحمد، لكن ابتسامة ابن الأحمد تعثرت بقسوته الدائمة، وعادت إلى مخبئها خائبة.

قال ابن الأحمد:

-فكي الكيس يا زهوة واطعمي أبا يوسف وابن الصبرة من التفاحات.

-وأنا وأنت؟

-من نسي بطنه أضر نفسه...

فكَّت زوجة ابن الأحمد الكيس، وأخذت بعض التفاحات واتجهت إلى الجرة الكبيرة المستندة إلى حائط الساحة... غسلتها وعادت بها إلى الجالسين.

أرض ابن الأحمد متاخمة لأرض كريم والد حسان من جهة، ولأرض يوسف بوحمود من جهة أخرى وقد سيجها ابن الأحمد بسياج من العيدان والحطب، وجعل للسياج أبواباً خشبية يسيرة يمكنه أن يدخل ويخرج منها...

سمر وسلمان ولد بو حمود جلسا على المصطبة، دون أن يعطيا لجلستهما أي مظهر يوحي بالحب... سمر رغم أن سنها يقارب سن سلمان نضجت أنوثتها وتفتحت روحها على أنسام الحياة والهوى أكثر من سلمان... وصارت مبعث دهشة ولهفة وهيام سلمان، فصار يراها في نومه، ويناديها بأوصاف يتمنى لو يجرؤ على لفظها في يقظته... حتى في الرسالة التي بعثها لها، لم يجرؤ على كتابة أية كلمة من تلك الكلمات التي يمتلئ فمه وصوته بها أثناء نومه... وسمر تعرف تمام المعرفة ما يختزنه في صدره من حب لها، وهي تشعر بالحب له وبالارتياح.

جلس سلمان على طرف البساط بعيداً عن سمر....

قال سلمان:

-هنيئاً لك يا سمر... الجميع يحبونك...

لم تجبه بأية كلمة، مما جعل وجنتيه تزدادان احمراراً... بقي سلمان على جلسته، وسمر بقيت ملتمة على نفسها، رأسها على ركبتيها وشعرها الأسود الطويل تدلى فأخفى كامل وجهها كقمر وضاء أخفاه الليل.

من بعيد نادت رباب:

-يا سمر يا سمر.

-نهضت سمر خائفة وأسرعت إلى جهة سلمان وقالت له بصوت منخفض:

www.alkottob.com

–والدي صار بين أشجار المشمش... اخرج من جهة أرض ابن الصالح.

* * *

بيت ابن الأحمد والدرب المؤدي إليه يوحيان بأن ساكنه يخلو من القسوة، لكن الحال على خلاف ذلك، فنفس ابن الأحمد... معذبة مطعونة، وروحه مزدحمة بالشقاء والتعاسة، وهذا ما جعله يميل إلى العزلة والقسوة وظلم أولاده... ويبدو أنه ورث النكد والفقر والطباع السيئة من دنيا غنية بهذه الحاجات.

الدرب الواصل بين بيته وبيت أبي يوسف درب متميز، أنفق أياماً في هندسته، واقتلاع أشواكه حتى غدا خالياً من الشوك، حنوناً تحيط به الأغصان.

أبو يوسف في أيام نادرة، يزور ابن الأحمد... يترك مصطبة التوتة وينطلق باتجاه بيت ابن الأحمد.

من بعيد نظر سلمان إلى بيت ابن الأحمد فألفى سمراً منشغلة بغسل الصحون وألفى رباباً قد حملت الجرة وانطلقت إلى نبع ساقية المراعي حيث الدلباب، ونظر إلى بيت أبي يوسف فألفى أبا يوسف يمشي وئيداً باتجاه المساء وبيوت الجيران، وألفى بيت ابن الحمودة المجاور لبيت أبي يوسف يغرق شيئاً فشيئاً في غبش المساء.

قالت سمر في نفسها:

"لو نجلس أنا وسلمان عند أبي يوسف... ونسمع أحاديثه، ونعاين وجهه وملامحه ونمتلئ بصوته ورائحة شجرة التوت ومساءاتها"...

كم أتمنى أن يهرب بي المساء إلى مصطبة أبي يوسف وشجرة التوت، فأستريح من قسوة والدي وغضبه"...

يئس أخيراً سلمان من أن يعود ثانية إلى حيث سمر أمام البيت، وصوت والدها ينشر الخوف في أرجاء نفسها، واتجه غرباً إلى جهة بيت أبي يوسف، ومنه إلى حيث يشاء. شاهدت سمر سلماناً وهو يمشي متحيراً باتجاه بيت أبي يوسف وشجرة التوت... وشاهدت البيوت وهي تغرق في ظلمة العشاء، وبقي صوت والدها ينشر الخوف حولها كسياج من الأشواك متين...

www.alkottob.com

أصوات قليلة بقيت تخرج من أنفاس ليل قرية شجرة التوت... وبقيت سمر تسمعها وترى الطيور وهي تتجه مسرعة إلى أعشاشها...

قالت لأمها وهي تتجه إلى المصطبة:

-ألم تري بيت أبي يوسف إنه لا يختفي في الليل، لأن شجرة التوت تبقى واضحة وضوء سراجه يبقى متوهجاً... وصوت أبي يوسف يبقى مسموعاً.

-أبو يوسف وشجرة التوت من أقدم الذين عاشوا في قريتنا يا سمر... وأنا أعرف أبا يوسف... إنه أحسن من أم يوسف بألف مرة.

-كادت سمر تضحك لكنها كتمت ضحكتها، خوف أن يسمعها والدها وهي تضحك فيطلق صوته عبر الأفق فيذهب بهجة حديثها مع أمها عن أبي يوسف.

قالت أمها:

هل شاهدت أم يوسف وهي تلم البيض أو وهي تصف حاجات الناس... إنها تسبب البلوى بين الناس... إنها يوم تزورنا تسبب لي الشقاء، لأنها تصف أشياءنا بأنها لا نفع منها، وتقول لوالدك: ما هذا البساط؟... لماذا أخطأت زوجتك بشبكه، وما هذه الطراحة، وما هذه المخدة؟.. وتبقى تسأل حتى تسبب الخلاف بيني وبين والدك.

* * *

-هل نجحت سمر في صفها يا سلمان؟.

-سمر لا ترسب في أي صف من صفوف المدرسة، ولولا قسوة والدها لكانت الأولى في المدرسة يا حسان.

-وأنت ألم تنجح؟

-حتى الآن لم تظهر نتائج امتحاناتنا.

دار هذا الحديث بين حسان وسلمان وهما يتقدمان من جهة السد باتجاه بيوت القرية. بيت سمر هو أول بيت يظهر للقادم من جهة السد.. قال حسان:

هاقد وصلنا إلى جهة بيت ابن الأحمد لكن سمراً ليست موجودة على المصطبة يا سلمان؟!.

تكون ذهبت لزيارة أختها التي في المدينة.

أختها الكبيرة جوهرة؟؟

www.alkottob.com

–هكذا قالت لي في الأمس... قالت لي: سأزور أختي الكبيرة جوهرة وربما أنام عندها إذا سمح لي والدي.

أنا لم أشاهد أختها جوهرة إلا مرتين، مرة كانت تزوركم ومرة كانت تزور أم يوسف...

–هل سمعت أوصاف أم يوسف لها عندما تزورها وتحضر لها المأكولات والثياب؟

–لا لم أسمعها.

أنا سمعتها مرة وهي تحكي لزوجة ابن الحمودة. كنت جالساً عند أبي يوسف تحت أغصان التوتة وكانت أم يوسف وزوجة ابن الحمودة جالستين في البيت، قرب العمود الكبير.... يومها قالت أم يوسف لزوجة ابن الحمودة: ضيع ابن الأحمد بقسوته بناته: جوهرة من أجمل البنات لكنها هربت من والدها وتزوجت رجلاً معمراً، ليحميها ويؤمن لها مصاريفها، وبقيت فترة طويلة لا تزور القرية، ثم سمح لها والدها بزيارة البيت.

وأنت يا سلمان ألا تخاف على سمر من أن تضيع مثل جوهرة؟

أطرق سلمان إطراقة المحاصر بالأسى والخيبة ولم يتكلم.

قال حسان:

انظر إلى شجرة أبي يوسف إنها تفرش أغصانها فوق المصطبة وسطح البيت وفوق الدرب، وتكاد أن تصل إلى شجرات التين التي في أرضنا.

والأكثر من هذا أنها تجمع الجيران وتلم البعيدين منهم والقريبين.

أتصور أن أغصانها ستصل ذات يوم إلى جدار بيت ابن الحمودة الجنوبي.

نحن نذكر شجرة التوت وأبا يوسف وبيت ابن الحمودة، وزوجة ابن الحمودة عند أم يوسف تحت التوتة.

نظر سلمان إلى جهة التوتة فظهرت له زوجة ابن الحمودة بخمارها الضارب إلى السواد وظهر منديل أم يوسف وقد قمطت رأسها به بطريقة هندسية متداخلة، لا يدركها إلا أم يوسف وبعض نساء القرية، وظهرت الدجاجات تسرح في ساحة البيت بحثاً عن حبات القمح، والجرة الكبيرة المستندة إلى حائط الساحة الغربي.

قالت أم يوسف:

رائحة ماء هذا السد لا تريح البال...

www.alkottob.com

–أنا مثلك أشم رائحة سيئة تجيء من جهته...

قالت لي زوجة ابن الأحمد إنها رأت فيه أفاعي سوداء.

–ماذا يمكننا أن نفعل مع السد والأفاعي إلا الحذر والخوف من القدر؟!.

لم تكمل أم يوسف وزوجة ابن الحمودة حديثهما لأن صوت ابن الحمودة قطع عليهما متابعة الكلام إذ نادى زوجته...

–أنا سأذهب يا أم يوسف، لأن ابن الحمودة يكون جائعاً أو يكون معه ضيوف... زمّت أم يوسف شفتيها ونطقت كلمة أو أ كثر في وداع زوجة ابن الحمودة، وعادت إلى جلستها... مدت يدها إلى منديلها، لتتأكد من سلامة ربطته... ثم انحرفت قليلاً باتجاه ساحة البيت لتعاين واقع حال الدجاجات.

صوت ابن الأحمد أفزع أم يوسف، ومشت عبر دريب البيت المحاط بجذع التوتة وحفاف المصطبة وحفاف الأرض، وانطلقت عبر الدرب المتجه شرقاً... لتخبر زهوة بخبر وصول ابن الأحمد إلى الساقية...

وقفت أم يوسف عند طرف البيت الشرقي فلمحت زهوة خارجة من باب السياج الخشبي... قالت في نفسها: سمعت زهوة صوت ابن الأحمد... وهل يبقى أحد في القرية لا يسمح صوته إذا نادى...

* * *

وجود شجرة التوت في القرية علامة خير لكل الجيران، تحت أغصانها يجتمعون، يحكون حكايات حياتهم... ويشربون الشاي وماء النبع البارد... شجرة التوت البرية ليست شجرة عادية. تتبدى للناس في حالات مختلفة، ولكل حالة دلالة بعيدة ووقع عميق في القرية... إن بدت خضراء، فذلك دلالة خير وإن بدت شاحبة ذابلة فذلك نذير سوء...

ابن الصبرة نظر إليها من أرضه المجاورة للساقية فألفى أغصانها ذابلة.

قال لزوجته:

–يا أم محمود... أنا خائف هذا اليوم.

–لماذا أنت خائف... البقرات بخير والدجاجات لم يصبها مرض الخناق... وشجرات الزيتون جيدة الحمل هذا العام؟

www.alkottob.com

-لا أدري ما سبب خوفي... منذ شاهدت شجرة أبي يوسف ذابلة؟!.

-طول بالك يا أبا محمود واحمد حظك ودنياك.

بيت ابن الصبرة يشرف على الساقية القادمة من المراعي، ومن أمام مصطبته يمر الدرب المنطلق من الساقية إلى بيت ابن الصالح وبقية البيوت القريبة...

جلس ابن الصبرة على المصطبة، وأسند رأسه إلى وسادة عالية، بينما أم محمود ذهبت بالبقرات إلى الساقية لتسقيها...

فكّت حبال البقرات من شجرات التوت والزنزلخت وأطلقت لها العنان شرقاً نحو نبع الساقية... تذكرت كلمات زوجها عن شجرة التوت وأبي يوسف "أنا خائف يا أم محمود من ذبول أغصان التوتة".

نظرت أم محمود إلى جهة بيت أبي يوسف فلمحت أبا يوسف قادماً باتجاه المصطبة، ولمحت زوجة ابن الحمودة قرب الدرب، ولمحت أم يوسف وهي تميل ميلاتها المعهودة وسمعت صوتها تنادي الدجاجات:

تعاه... تعاه... تعاه...

بوزهره... بوزهره... بوزهره...

وسمعت صوت زهوة زوجة ابن الأحمد وصوت بنتها سمر ورأت ابن الأحمد وهو يخرج من باب السياج الخشبي ويتجه غرباً إلى مصطبة أبي يوسف... شجرة توت أبي يوسف تظهر جيداً لكل الجيران، ويظهر الجالسون على مصطبتها، وتظهر الدجاجات التي تسرح في ساحة البيت إلى جوارها، لأن أرضها مرتفعة ومشرفة على البيوت والكروم... أم محمود شاقها أن تسقي البقرات، وتربطها وتنطلق بعد ذلك إلى مصطبة شجرة التوت وتقشر بعض القمح في الجرن، وتسمع أحاديث القرية وتطمئن إلى سلامة حال شجرة التوت.

غفا ابن الصبرة غفوة سريعة، لكنها قلقة ومزعجة، إذا ازدحمت رأسه بالرؤى المخيفة... رأى نفسه وسط المرعى ومعه بقراته، وإذ بوحش يهجم عليه وعلى بقراته، ولولا أنه رأى أبا يوسف مصادفة لقتله الوحش وقتل بقراته.

استيقظ خائفاً، نظر حوله ونظر إلى البقرات، فلم يجدها، فاعتقد أنها سرقت أو قتلت، لكنه اطمأن عندما رأى أم محمود تعود بها من الساقية.

أسند ابن الأحمد ظهره إلى الحائط، بعد أن وضع لفافة الدخان العريضة في

www.alkottob.com

فمه... قطَّب حاجبيه وقال:

-هل تعلم يا أبا يوسف أن رائحة السد قاسية جداً؟!

رد ابن الحمودة مؤكداً:

-فعلاً رائحة سيئة وصعبة المعاشرة كما يقول ابن الأحمد.

قال أبو يوسف:

-هذا قدر حلّ بقريتنا.

نظر ابن الأحمد إلى جهة الساحة، فرأى بعض دجاجات أم يوسف تسرح في جهات الساحة. نحنحة الحمامات والأفراخ في أعشاشها فوق العتبة كانت تؤنس صمت الجالسين، وتعطي الهاجرة تحت أغصان شجرة التوت نكهة حنونة.

قال ابن الحمودة:

في الليل الفائت سمعت صوتك وخفت من أن تكون غضبت على بنتك سمر، وفكرت بأن أدق الباب على أبي يوسف من أجل ذلك.

-لا لم أكن غاضباً على سمر ولا على زهوة... بل كنت غاضباً على /بوزهره/.

قال ابن الحمودة مندهشاً:

اوف اوف اوف... من شر /بوزهره)... إنه لعنة لا تنتهي.

منذ يومين وأنا أمشي قرب الساقية والمراعي لمحت عدداً من /بوزهره) وخفت على دجاجات أم يوسف يومها وخفت على دجاجات كل الجيران، ويومها عدت مسرعاً إلى البيت لأطمئن على حال الدجاجات. ابن الأحمد نأى بهواجسه عن أبي يوسف وابن الحمودة، عاد إلى كلمات ابن الحمودة: "خفت من أن تكون غاضباً على سمر" وقال في سره: "وماذا يعني ابن الحمودة أغضبت أم لم أغضب على سمر... وما علاقته بذلك؟؟.. وهل يعقل أن غضبي على أولادي صار حكاية الجيران؟!".

مد ابن الحمودة يده إلى علبة دخان أبي يوسف، أخذ منها ورقة بيضاء ناعمة الملمس، وملأها بالدخان ولفها، وجعلها بين شفتيه، وأشعلها... سحب منها نفساً عميقاً، ثم حرك عجيزته لتستقيم جلسته على حصير المصطبة:

نظر إلى أرض شجرة التوت المزروعة بالتبغ:

-دخان أرضك قليل يا أبا يوسف!

www.alkottob.com

–أنا وأم يوسف يكفينا أي شيء.

–ابن الأحمد لم يزرع هذه السنة إلا البندورة...

قال أبو يوسف:

–شجرات مشمش ابن الأحمد ترد عليه بموسمها هذه السنة ما يكفيه ويكفي زوجته والأولاد.

قال ابن الحمودة:

–أنا سمعت من أم يوسف أن جوهرة بنتك الكبيرة ستأخذ سمراً لتدرس عندها في المدينة؟!.

–يا ابن الحمودة... أعطني علبة دخانك، لألف سيكارة، واسترح من قصة سمر وجوهرة وغضبي.

–تفضل... جرّب دخان علبتي.

قدّم ابن الحمودة علبة دخانه... وسكت... لأن كلمات ابن الأحمد جاءت قاسية عليه فأسكتته... لم تستمر جلسة ابن الأحمد وابن الحمودة عند أبي يوسف هانئة مطمئنة، لأن صوت ابن الصبرة جاء قوياً ومباغتاً ومعذباً:

ثعلب/ بوزهره/ قتل نصف دجاجاتنا.

***

أقبل الصبح ثقيلاً حاراً، وشجرات مشمش ابن الأحمد أثقلها اصفرار ثمارها... فراحت تتساقط بفعل الحر الشديد.

جمعت سمر ثيابها القليلة في حقيبة سوداء صغيرة، وارتدت ثوبها الزهري فبدت بهية نضرة، وسرحت شعرها الطويل فكاد يصل إلى عجيزتها...

قالت لوالدها:

–أنا ذاهبة... ماذا توصيني؟

–خذي معك سلة المشمش لأختك جوهرة، وارجعي بعد أسبوع إلينا...

شاهدت قرية شجرة التوت سمراً وهي تخرج من باب السياج الخشبي وفي يديها سلة ملأى بالمشمش وحقيبة جمعت ثيابها بها... نسيت سمر أن تودع أبا

www.alkottob.com

يوسف وشجرة التوت، حتى إنّ أم يوسف قالت لزهوة عندما علمت بعد يومين بذهاب سمر:

-تمنيت أن تمر سمر عليّ، لأعطيها البيضات التي جمعتها لتأخذها لجوهرة.

-سترجع إلى البيت بعد أيام معدودة.

-أبو يوسف ليس هنا اليوم أين هو؟؟.

-قد يكون ذهب إلى دكان بوحمود أو يكون قصد بيوت الأولاد في المدينة... ليستطلع أخبارهم.

أولاد أبي يوسف عاشوا في البيت الترابي، حتى كبروا، وسارت أمورهم على ما يرام، وتزوجوا، فتركوا البيت الترابي، وسكنوا بيوتاً أو غرفاً ضيقة في المدينة نزولاً عند رغبة زوجاتهم... المصونات... لكن أبا يوسف منذ البدء أكّد لهم أنه لن يترك شجرة التوت والمصطبة والبيت الترابي... وهو غني عن بيوتهم وعيشهم في المدينة...

عادت أم يوسف إلى انشغالها بإطعام الدجاجات... وبالبحث عن أفراخ الحمام: أهي موجودة في أعشاشها أو طارت في أرجاء البيت، أو أن أبا يوسف ذبح بعضها وأطعمه لجيرانه، أو أخذه دون معرفتها لأولاده في المدينة؟.

زهوة زوجة ابن الأحمد جلست على المصطبة وأسندت ظهرها إلى جذع التوتة... لكنها لم تبقَ وحيدة لأن زوجة ابن الحمودة وصلت...

-شايفتك هنا اليوم... ابن الأحمد ليس في البيت.

-ابن الأحمد في المدينة يشتري بعض الأغراض والحاجات.

-قال لي ابن الحمودة: إن سمراً ذهبت إلى بيت أختها جوهرة؟!.

-ذهبت من يومين وستعود بعد أيام.

جوهرة لم تأخذ سمراً من أجل الدراسة... بل من أجل أمر آخر رتّبته في ذهنها جيداً... وسلسلت أحداثه قبل حدوثها...

الحياة علّمت جوهرة أن الغيوم لا تمطر إلا في الفصول الغنية بالمواسم، وعلّمتها أن العيش في بيت والدها أمرٌ من الشقاء، وأن المرأة الجميلة يجب أن تتزوج رجلاً غنياً لينفق عليها كما تشاء...

www.alkottob.com

منذ اليوم الأول قالت لسمر:

–اهتمي بنفسك جيداً... واشترت لها بعض الثياب، وحاولت أن تشعرها بأن الحياة في المدينة نعمة لا بعدها ولا قبلها... لكن روح سمر لم تستطع أن تعشق المدينة بسرعة، وبقيت شجرة التوت تشدها بألف خيط... وبقي أبو يوسف وحكاياته وأيامه ملء خيالها...

في اليوم الثالث سألت جوهرة أختها:

كيف ترين الحياة هنا يا سمر؟؟ ألم تفرحي بحياتنا في المدينة؟؟.

صمتت سمر... ولم تجب حتى بالإشارات...

–عادت جوهرة وسألتها:

–مالك ساكتة هكذا... قولي لي، ألم تعجبك حياتي؟؟.

–لا أعرف يا جوهرة إن كانت حياتك تعجبني أو لا تعجبني، أنا الآن أتمنى أن أعود إلى القرية.

–أنت لا تعرفين الحياة ولا تعرفين كيف يعيش الناس.

–أنا الآن أفكر في حياة قريتنا، وأذكر أبا يوسف وشجرة التوت، وأتمنى لو أنني ودّعته، وودّعت أم يوسف وكل الجيران... أنا خائفة يا جوهرة...

–من ماذا خائفة؟؟.

–لا أعرف... لكنني أتمنى لو أنني جلست عند أبي يوسف وسمعت حكاياته قبل أن أجيء إلى عندك. سكتت جوهرة، ولم تضف أية كلمة، لأنها تعرف أبا يوسف، وتعرف شجرة التوت الواسعة التي أمام بيته، وتعرف أم يوسف وتزورها كلما قصدت القرية، لكنها لم تألفه ولم تتعلق به كما تعلقت به سمر... قالت في نفسها:

"أبو يوسف –فعلاً– عجوز حنون، عشرته حنونة، وشجرته حنونة، لكن الزواج من الأغنياء يخلص المرأة من الحاجة".

عادت سمر إلى الحديث:

أنت يا جوهرة غبت عن القرية منذ سنوات طويلة، وقد تكونين نسيت أبا يوسف وشجرة التوت، أمّا أنا فلم أنسَ لا أبا يوسف ولا شجرة التوت... أنا أتمنى أن أجلس عند أبي يوسف يوماً كاملاً، استمع له وهو يحكي عن أيامه وشغله، وسفره وفلاحته، وعن أم يوسف وأيامها معه، وعن الينابيع والأشجار والطيور.

www.alkottob.com

أبـو يوسـف إلـى اليـوم يخبـئ البيضـات عـن أم يوسـف ويعطيهـا لـلأولاد، ويعطيهم الفرنكات... ويجلسهم على مصطبته في الهواجر والمساءات...

إنـه يشبه نبـع الساقية عندما يتدفق فـي الصيف... وليت أبـي مثلـه... ليتـه يكون رحيماً بنا، ليته لم يشرّدنا كأوراق غصن يابس... ليته كان كأبي يوسف، وليت أشجارنا كشجرته، لكان رحمنا من البؤس والضياع والعار...

قالت جوهرة بحسرة:

–آه يـا سـمر... أراك كبـرت بسـرعة، وأراك تفهّمـت وضـع حياتنـا مـع والـدنا بشكل جيد... المدرسة علّمتك ونفعتك...

كان البحر لطيفاً كأطفال يلعبون مع الريح، وكانت رائحة ذكريات قرية شجرة التوت ملء أنفاس جوهرة وسمر... وكان الصيف مزدحماً بالناس والمساء، لكن سمراً وجوهرة بقيتا في دنيا شجرة التوت وأبي يوسف وأيام العيش المريرة... عادت جوهرة إلى حديثها:

أنت يا سمر تعلمت في المدرسة، ونجحت، أما أنا فلم أقترب من المدرسة، ولم أحمل دفتراً أو كتاباً في حياتي... أيامي مع والدي كانت أقسى من أيامك ويومها كانت شجرة التوت وكان بيت أبي يوسف، لكن أبا يوسف كان مسافراً... مرت علي أيام وليال لم أجرؤ على النوم في البيت خوفاً من والدي، كنت أحاول الذهاب إلى بيت أبي يوسف لأنام عند أم يوسف، لكن أم يوسف ليست كأبي يوسف، لتحميني وتساعدني... أذكر إلى اليوم أنني في يوم من أيام البرد والمطر خفت من والدي، فلم أرجع إلى البيت، وذلك لأمر بسيط يتعلق بسلة مشمش... في الليل ذهبت إلى عند أم يوسف، كانت وحيدة في البيت... نمت عندها على المصطبة الداخلية، لكنها في اليوم الثاني ذهبت إلى والدي وراحت تنصحه وتحضّه على ضربي وإزعاجي وطردي من البيت...

قالت سمر:

–حياتنا مع والدي صعبة يا جوهرة... لكنك أنت أخذت أكبر نصيب من عذاب العيش معه.

عادت جوهرة إلى الحديث:

–تصوري يا سمر رغم أن أم يوسف كانت توصي والدي وتنصحه بأن يضربني ويطردني فقد أزورها وأحمل لها الأغراض، ليس من أجلها، بل من أجل شجرة التوت وأبي يوسف...

www.alkottob.com

–أنا مثلك أطمئن بالجلسة على مصطبة شجرة التوت، وبالاستماع إلى أحاديث أبي يوسف...

قالت سمر:

أنا أذكرك وأذكر تعذيب والدي لك، وأذكر يوم تركت البيت وغبت، وراحت أم يوسف تسأل عنك وتبحث، لكنها لم تجد لكِ أثراً... وأخيراً سمعت أنّك تزوجت في المدينة...

–تعرّفت إلى زوجي مصادفة، فأعجبته وطلب مني الزواج، وقبلت دون سؤال أو جواب لأنني كنت دون بيت، كنت كغصن مقطوع من شجرة لا أرض لي ولا دار ولا أهل ولا أحد...

وزوجي ليس عظيماً أو رجلاً بكل معنى الكلمة، لكنه يحترمني، ولا يتركني محتاجة لشيء... سكتت سمر. لم تتكلم، أخذتها هواجسها إلى حيث شجرة التوت وسرحت بها في دروب القرية ومرت بها على البيوت والساقية وبيت ابن الصبرة، وابن يوسف بوحمود... تساءلت في نفسها: سلمان هل يمكنه أن يتزوج الآن؟ وهل يمكنه أن يؤمّن لي حاجاتي؟ إنه شاب... وحبيب... لكن الحب عند والدي يموت، وتذوي أغصانه... وتنتهي حياته سريعاً...

قطعت جوهرة على سمر رحلة تأملاتها:

–بماذا تفكرين الآن؟..

–بالعودة إلى القرية.

–لماذا... للعيش مع الشقاء والغضب والفقر؟

–معك حق يا جوهرة... لكنني أحب القرية وشجرة التوت وأبا يوسف، أشعر دائماً بأنها علامة خير وحياة لكل القرية... أراها أحياناً في نومي... أخاف عليها من الرياح القوية ومن العطش الشديد، وأتمنى أن أزورها وأجلس قربها كل يوم...

–أنا معك في أن تزوري شجرة التوت وأبا يوسف، لكن ما رأيك في الزواج؟

–أوف... أوف... ما أتعس الحياة وأضيقها لا... لا... أنا الآن لا أفكر بالزواج.

–بماذا تفكرين إذن؟

–لا يوجد تفكير الآن بالزواج... أفكر بالدراسة... وبأمي وبالجيران...

www.alkottob.com

الزواج لم أفكر به حتى اليوم...

–ادرسي عندي، وعيشي عندي، وعندما تنتهي الدراسة تفكرين بالزواج... ما رأيك؟

صمتت سمر... أخذتها ريح التذكر والتأمل وابتعدت بها عن أختها: هل يعقل أنني أفكر بالزواج؟ والدراسة التي حلمت بها طويلاً... وكلمات أبي يوسف: "أنت يا سمر من الجيدات في القراءة والحفظ، وقد وهبتك الدنيا جمالاً وحسناً... لكن والدك صعب والعيش معه مر، وأنا أخاف عليك من غضب والدك".

* * *

زوجة ابن الحمودة بعد أن أنهت عملها في البيت والأرض المجاورة للبيت.... فكرت بأن تذهب إلى بيت أبي يوسف، لتجلس عند أم يوسف، وتستطلع منها أحوال الناس والدنيا... لكنها ما أن أسندت ظهرها إلى حائط البيت حتى غفت، ولم يوقظها إلا صوت ولدها العائد من المدينة حيث يدرس:

–أمي... أمي... أمي... مالك تتكلمين وأنت نائمة؟

–بارك الله بك يا ولدي... لأنك أرحتني من حلم مخيف وصعب...

–فعلاً... كنت تتنفسين تنفساً ضيقاً، وتتكلّمين كلاماً غير مفهوم... وتحاولين أن تصرخي، فلم تستطيعي... ماهو هذا الحلم الصعب يا أمي؟

–أنساني أن أسألك عن نفسك وأمور دراستك.

–قولي ما هو؟

–صدقني يا ولدي أنني شاهدت شجرة التوت تهوي، تقتلعها ريح قوية. وتهدم بيت أبي يوسف... ورأيت الجيران يحاولون أن يوقفوا انهدام البيت أو يسندوا جذع التوتة، أو أن يحضروا الألحفة ليمنعوا البرد عن أبي يوسف...

تصورت نفسي مع الجيران... أحاول أن أساعد أم يوسف... لتجمع الدجاجات، وتحميها من المطر... وكثيراً يا بني حاولت أن أنادي الناس ليأتوا... وأن أدعو للتوتة بالبقاء ولأبي يوسف وبيته بالخير والدوام، لكنني كنت لا أستطيع، كما رأيتني أنت حين وصلت وأنا نائمة.

نظر ولد ابن الحمودة إلى أمه فوجدها مبللة بالعرق وخائفة إلى حد بعيد...

www.alkottob.com

ووجدها تنظر إلى جهة شجرة التوت بلهفة وشوق، وكأنها لم ترها منذ سنة أو أكثر... ونظر إلى جهة شجرة التوت، فرآها تتسع في الأفق، وتمتد في الجهات ورأى الطيور تسعى إليها، وقد استوقفه الطائر الأخضر الجناحين الكبير الذي خاف من قضبان دبق ابن الأحمد وانقطع أياماً على أثر ذلك، لا يزور التوتة، ثم عاد إلى أفقها وأغصانها وإلى تغريده حتى إن ولد ابن الحمودة مطّ رقبته قليلاً فبانت له مصطبة التوتة، وبان عليها ابن الأحمد وابن الصبرة وابن الصالح وأبو يوسف، وحديثهم كان مسموعاً:

– هل تعلم يا أبا يوسف أنني كلما نظرت إلى أرض النبع أحزن.

–أنت على حق يا ابن الأحمد، في أن تحزن على أرض والدك وأرضك من بعده التي سلبها ابن الحسن منك بالحيلة والمكر والنفاق والرشوة.

قال ابن الصالح:

–أنا أذكر منذ سنوات بعيدة وكنت حينها طفلاً، أذكر والدك يا ابن الأحمد، وأذكر الكوخ القصبي، الذي كان مبنياً في أعلى الأرض.

ردّ ابن الصبرة:

–معنى ذلك أنك كنت صغيراً يا ابن الصالح لأن والد ابن الأحمد منذ سنين طويلة غاب...

قال أبو يوسف:

–والد ابن الأحمد من العتيقين في قريتنا، وكان كريماً ويحب عشرة الطيور وصيدها، وقد بنى منذ بدأ يزرع أرض النبع كوخاً من القصب، وكان يستريح فيه، وفي أيام التين ينام فيه.

قال ابن الصبرة:

–مرة "ركض ورائي ووراء ابن الحمودة ووراء يوسف بوحمود، لأننا مررنا من قرب دلبة الساقية الكبيرة، ورفعنا أصواتنا، ففر طائر كبير كان قضيب الدبق أمسك به".

عاد أبو يوسف إلى الحديث:

–عادة ابن الأحمد في إمساك العصافير بالدبق ورثها عن والده.

سأل ابن الصبرة:

–وعادة الغضب على أولاده والانعزال عن الجيران من أين جاءته؟

www.alkottob.com

–إنها نقمة الفقر تجر على الإنسان الشقاء والغضب والتعاسة... ولا ننسى يا ابن الصبرة أن أرض ابن الأحمد أخذت منه بالقوة، ولم يستطع إعادتها...

صمت ابن الصبرة ومثله ابن الصالح...

قال ابن الصبرة في سره: "أبو يوسف يعرف أسرار الأمور ويفسّرها... كيف غاب عني أن ابن الأحمد أخذت أرضه التي ورثها عن والده؟

* * *

الجرن كان فارغاً من القمح، والدجاجات في ظل أغصان التوتة... وصلت رباب إلى أول دريب البيت، واتّجهت عبره باتجاه الساحة، لم تسمع أي صوت، ولم ترَ أحداً على مصطبة البيت... فقدّرت: أم يوسف عند زوجة ابن الحمودة، لكنها قبل أن تفكر بالذهاب إلى بيت ابن الحمودة بحثاً عن أم يوسف جاءها صوتها من الداخل:

–من أنتِ... سمعت خطوك؟؟

سمعت خطوات رباب لكنها لم ترها...

ردّت رباب بسرعة:

–أنا رباب...

اتّكأت أم يوسف على يدها اليمنى ونهضت حتى استوت قاعدة على المصطبة قرب العمود، مسحت وجهها بكلتا يديها، وشدّت منديلها... ونظرت إلى جهات البيت بحثاً عن الحمامات والأفراخ... ونادت:

–ماذا تريدين يا رباب:

–أريد أن أشتري بعض البيضات لوالدي...

–تعالي... ادخلي...

دخلت رباب بثوبها الباهت وبنطلونها القصير قليلاً، حتى يظن من يراها لأول مرة أنها شمّرته لتتفادى تلوثه بالغبار أو بسواه...

قالت أم يوسف لها منذ رأتها بباب البيت:

–هل جلبت من والدك ثمن البيضات التي ستأخذينها... قولي بصراحة...

www.alkottob.com

ولا تحاولي أن تخبئي عني، فينالك حسابك من والدك، وأنا سآخذ كامل ثمن البيضات قرشاً قرشاً...

* * *

وهج الهاجرة كان قاسياً، ورائحة ماء السد لم تسعد أنفاس ولد ابن الحمودة وسلمان وحسان... ولا أنفاس سمر التي جلست على مصطبة البيت في ظلال شجرات المشمش هرباً من لهيب الهاجرة.

نظر سلمان إلى بيت ابن الأحمد، فلمح رباباً تفتح باب السياج الخشبي، وتخرج.. فقدّر أنها قادمة إلى أم يوسف لشراء البيض...

سأل حسان ولد ابن الحمودة:

-هل أنهيت دراستك في الجامعة؟؟

-بعد شهرين أو ثلاثة أنهي آخر الفصول في الجامعة.

-وبعد أن تنتهي من الجامعة ماذا ستعمل؟

-علمها عند القائمين على الأمور والقاعدين عليها، وقد تعلم ذلك شجرة أبي يوسف، فهي أدرى بالأمور. وأنت وسلمان في أية سنة صرتما في الدراسة.؟؟

-أنا صرت في الجامعة في السنة الأولى، أما سلمان فقد شغله الحب عن كل أمر، وأنساه أن يقرأ، فرسب ولم ينجح إلا بالعشق...

* * *

تلعثمت رباب بالكلام، ولم تنفذ حيلتها بإخفاء بعض الفرنكات عن أم يوسف لعلمها الأكيد أن أم يوسف لن تتساهل بتحصيل حسابها، وذلك سيجر عليها الويل من والدها... لأنه إذا علم من أم يوسف أن ثمن البيضات ناقص سيتأكد من أن رباباً أخذت الفرنكات الناقصة، وسيفرض عقوبة شديدة بحقها، ولهذا دفعت رباب كامل الفرنكات لأم يوسف فور وصولها إلى المصطبة...

أخذت أم يوسف الفرنكات من رباب، ونظرت إليها وتبيّنت عددها، وقالت لرباب:

-جلبت معك فقط عشر فرنكات معنى ذلك ستأخذين ست بيضات..

www.alkottob.com

–نعم يا أم يوسف، هذا ما قاله لي والدي:

اذهبي إلى أم يوسف واجلبي لنا من عندها ست بيضات، لكن: قولي لها أن تعطيك من البيضات الطريّات.

–اسم الله على والدك وعليك... وهل يبيت عندي بيض، حتى يوصيني والدك بأن أرسل له من البيضات الطريات؟

–أنا أعرف أن الجيران يشترون من عندك البيض كل يوم.

–لا... يا رباب الفهيمة... اسم الله عليك: أنا أبيع كل البيضات التي أجمعها للدكان. حارت رباب، وخافت من أن تتكلّم أية كلمة أخرى، لأن أم يوسف لن توافقها على أية كلمة تقولها، وستؤنبها، في كل الأحوال سواء تكلمت أم صمتت...

قامت أم يوسف بعد أن زمّت شفتيها، ودقّقت النظر إلى رباب والفرنكات... مشت عبر البيت باتجاه /العرزال/... لاحقتها رباب بنظراتها، واستوقفتها طريقة أم يوسف العجيبة بالمشي وشمر أثوابها المتراكمة على جسدها الضائع بين الثياب...

من تحت العرزال أخذت أم يوسف وعاء من القش مملوءاً بالبيض، وعادت خطوات قليلة باتجاه رباب، قالت لها:

خذي... هذه هي البيضات، وانتبهي إليها ولا تكسريها، أثناء مشيك على الدرب.

خرجت رباب على مهل، وانطلقت عبر ساحة البيت المزدحمة بالدجاجات والديوك وأفراخ الحمام... لم تجرؤ رباب على الالتفات طويلاً إلى الساحة ودرج البيت ولا شجرة التوت والمصطبة...

كادت تصطدم بحفاف المصطبة وبجذع التوتة، ولم تجرؤ على النظر خوفاً من أن تراها عينا أم يوسف... وكادت تصطدم بزوجة ابن الحمودة، دون أن تراها...

لكن زوجة ابن الحمودة بادرتها بالكلام.

–أين كنت يا رباب؟

–كنتُ عند أم يوسف أشتري البيض.

–انتبهي إلى البيضات وأنت تمشين على الدرب...

www.alkottob.com

انطلقت رباب عبر الدرب باتجاه بيت والدها، وزوجة ابن الحمودة احتمت بسرعة بأغصان شجرة التوت من حر الهاجره الشديد... قبل أن تنعطف عبر درب بيت أبي يوسف، نظرت إلى جهة أرض وبيت ابن الصبرة، فألفت زوجته أم محمود تهيئ التنور وتجمع الحطب استعداداً للخبز في المساء..

شاهدت رباب سلمان وحسان وولد ابن الحمودة وهم يتجهون إلى جهة السد، لكنها لم تقدّر في تلك اللحظات ما سبب ذهابهم إلى السد...

دفعت باب السياج الخشبي إلى الأمام، ودخلت صادفت، أختها عند السياج، تتسلى بأفكارها وهواجسها:

–ألم تشاهدي سلمان؟

–أين هو؟

–انظري إلى جهة السد...

رفعت حاجبيها ونظرت إلى حيث أشارت رباب، فظهر لها سلمان وحسان وولد ابن الحمودة... قالت رباب:

–أين يذهبون في هذه الهاجرة الحارة؟

–لا أعرف... وقد شاهدت زوجة ابن الحمودة ذاهبة إلى بيت أبي يوسف...

* * *

–في الليل الفائت كان سراج بيتكم منطفئاً يا أم يوسف، ألم تكونا في البيت لا أنت ولا أبو يوسف؟

–أنا تأخرت عند بنت أخي زوجة ابن الصالح، وأبو يوسف كان عند أولاده أو عند الجيران.

–صدقيني يا أم يوسف أنني أقلق وأشعر بالانقباض والحزن عندما ينطفئ ضوء بيتكم...

–ترى هذه النظرة عند كل الجيران.

–يوم يتأخر أبو يوسف في إشعال السراج أحس بالتعاسة، وأقول لابن الحمودة:

www.alkottob.com

أين ضوء بيت أبي يوسف؟

إنّه منطفئ؟!...

سكتت أم يوسف.. لا لسبب، إلاّ لأنّ النعاس سرقها، فغفت.. نادتها زوجة ابن الحمودة:

-يا أم يوسف أأنت نعسانة؟؟

-نعم... أنا نمت...

-هل تعلمين يا أم يوسف أنني كنت أتمنى لو شاهدت أبا يوسف، لأنني منذ يومين أو ثلاثة أو أكثر رأيت في نومي رؤيا صعبة.

-تأملي الخير... وما هذه الرؤيا؟

-رأيت شجرة التوت تهوي، تقتلعها ريح عاصفة، ورأيت الجيران مجتمعين، لكنهم لم يستطيعوا فعل شيء... وحاولت أن أنادي، فلم أقدر، بل أحسست أنني سأختنق... لم يستمر حديث زوجة ابن الحمودة وأم يوسف لأن ضجة عالية جاءت من جهة السد ومن كل الجهات:

اسمعي يا أم يوسف صوت حسان:

أسرعوا يا جيران... ساعدونا على حمله، وأرسلوا من يجلب السيارة.

-قومي أختي قومي... لنعرف ما الخبر؟

قمطت أم يوسف رأسها بمنديلها الحريري العتيق، واستندت إلى حفاف المصطبة، ونهضت، وزوجة ابن الحمودة سبقتها... مشت مسرعة عبر الدريب الضيق... وقفت عند طرف البيت ورفعت حاجبيها ونظرت إلى جهة السد، فرأت الناس مجتمعين، وعند بيت ابن الأحمد لمحت رباباً وسمراً وزهوة وابن الأحمد...

فرأت أن تمشي إليهم لتستطلع منهم الخبر... لكنها قبل أن تصل السياج الخشبي عرفت أن ولدها غرق في السد وأسعفه الجيران... ضربت على رأسها ضربة قوية وضاعت في دوار شديد... حتى ارتمت مغشياً عليها قرب سياج أرض ابن الأحمد.

* * *

-هل تعلم يا ابن الصبرة أن شجرة التوت رغم قدمها في دنيانا ورغم عشرتنا الطويلة معها فهي إلى اليوم غريبة عنّا في أطوارها وأفعالها وطيورها

www.alkottob.com

وأغصانها.؟؟!!

–أنت على حق يا ابن الحمودة... شجرة التوت غريبة الأطوار والأحوال، وتظهر بأشكال وهيئات مختلفة، وأحياناً مفرحة... أنا من هنا من أمام بيتي أراها، وأعرف حالة أغصانها إن كانت ذابلة، وإن كانت خضراء... إني أراها علامة العلامات وشجرة الأشجار... فكم يوجد من الأشجار والمصاطب، لكنني أراها مختلفة، وأرى الجلسة على مصطبتها عند أبي يوسف مختلفة عن الجلسة على أية مصطبة في قريتنا.

–أنت من هنا تراها رغم الكروم التي تمتد بينها وبين بيتك، فكيف أنا وأغصانها تتجاوز سطح بيت أبي يوسف وتصل إلى بيتي وصوت أبي يوسف أسمعه وهو يتكلم كما أسمعك الآن، وضوء سراجه يبشرني بالخير عندما ألمحه من شق صغير في الجدار المقابل لبيتنا، أو عندما يبدو شعاعه من على المصطبة.

–أنا مثلك أرى ضوء سراج بيت أبي يوسف وأفرح، لكنني لا أسمع أبا يوسف إلا حين أزوره.

–انظر إلى أبي يوسف إنه عاد من عند أولاده، انظر إليه إنه دخل إلى ساحة البيت...

–ما رأيك أن نسهر عنده الليلة ونستمع إلى أحاديثه ونحكي له؟؟

–هو قد يذهب إلى بيت كريم، ليسهر عنده أو إلى بيت يوسف بوحمود، ولهذا أسرع في ربط بقراتك وإطعامها، لنتمكن من الوصول إلى بيته قبل أن يذهب إلى بيت أحد الجيران...

–وبيت ابن الأحمد ألا يسهر فيه؟؟

–أحياناً يزوره ويسهر عنده، لكن ابن الأحمد كما تعرف يغيب عن بيته أحياناً أو ينام مبكراً كالدجاج.

* * *

كان المساء يحبو لطيفاً كحلمٍ حنون بعيد، وكان ابن الصالح يعبر الساقية باتجاه بيته، وكانت أم محمود منشغلة بالخبز تساعدها زوجة ابن الصالح... ... ... وكانت ريح المراعي محمّلةً برائحة العشب وطعم الصدّاح، والأصوات الخافتة... والطيور تهيم.

www.alkottob.com

نظر ابن الصبرة وابن الصالح وابن الحمودة إلى جهة بيت أبي يوسف فلمحوا ضوء السراج وشجرة التوت التي لم يضعها ظلام العشاء...

أقبل ابن الصالح على مصطبة التنور حيث جلست زوجته، وحيث وضعت أم محمود الأرغفة المشوية الساخنة... فسارعت إلى أنفه رائحة الخبز الحنونة، فسارعت يده إلى رغيف، راح يأكله بشهية... بعد عضات متتالية للرغيف المشوي، عاد إليه رشده وانتبه إلى ابن الحمودة الواقف بانتظار أن يقدم له رغيفاً مشوياً... فعاجل ابن الصالح إلى طبق الأرغفة وأخذ منه رغيفاً أسمر شهياً وقدمه لابن الحمودة.

ابن الصبرة لم ينتظر ابن الصالح ليعطيه رغيفاً من طبق الأرغفة، بل سارع إلى الطبق وتناول منه رغيفاً مشويّاً شيّاً جيداً، وراح يمزّقه بأسنانه بتلذّذ...

أم محمود لم تقف بباب التنور حاسرة الرأس، بل وضعت على رأسها منديلاً أبيض مرقعاً، تفادياً لوقوع ما يتطاير من شرر التنور في شعرها، ومثلها فعلت زوجة ابن الصالح، قمطت رأسها بمنديل رمادي. سحبت أم محمود /محراك/ التنور وأسندته إلى حفاف التنور الشمالية، ورفعت بيدها المنديل قليلاً عن عينيها وسألت ابن الصبرة:

-إلى أين ذاهب؟

-مع ابن الحمودة وابن الصالح إلى بيت أبي يوسف.

-هل أطعمت البقرات وسقيتها؟

-نعم...

قال ابن الصالح:

أنتما اسبقاني وأنا ألحق بكما بعد قليل... مشى ابن الحمودة وابن الصبرة باتجاه الساقية والكروم، بينما ابن الصالح انطلق إلى بيته.. قالت له زوجته قبل أن يبتعد عن التنور كثيراً:

-لا تنسَ أن تسقي البقرة والخواريف.

-لا تقلقي... لكن لا تبقي عندك طويلاً... أنا جائع.

ابن الصالح أكثر شباباً من ابن الحمودة ومن ابن الصبرة، وهو أصغر منهما سناً، وزوجته أصغر من زوجتيهما... حين وصل ابن الصالح ركض ولده وبنته الفتيان لملاقاته. قال له الولد:

www.alkottob.com

-رعينا البقرة والخواريف في المراعي.

-أنتم ومن من الأولاد كنتم في المراعي؟

-كان معنا ولد ابن الأحمد الأعرج، وولد ابن الصبرة...

-هل سقيتما البقرة و /الخواريف/؟

-نعم... سقيناها من الساقية.

ارتاح ابن الصالح لأخبار ولديه عن رعيهما البقرة والخواريف وعن سقيهما، لأنهما بذلك قد أراحاه من مهمة لا يحبذها.

قال لولده:

-هات أعطني كرسياً إلى هنا!!

ركض ولده وأحضر لوالده كرسياً خشبياً متوسط الارتفاع عن سطح اليابسة...؟ أخذه وجلس عليه تحت أغصان شجرة البلوط الكبيرة. نظر إلى جهة بيت أبي يوسف فظهر له شعاع ضوء السراج، وظهرت له قامة أبي يوسف المعتدلة، المحنية قليلاً وظهرت له أم يوسف وهي تميل ميلاتها المعهودة وهي تمشي... ظهرت له وهي تغلق باب بيت الدجاجات الخشبي... كان أبو يوسف يهيّئ نفسه للذهاب إلى بيت ابن الأحمد، لأنه وعده أن يسهر عنده منذ أيام. وقف إلى جوار جذع التوتة واستند إليه استناداً يسيراً، وراح يلف لفافته على مهل حتى انتهى منها... مدّ يده إلى جيب /جاكيته/ وسحب منها قداحة... أشعل بها اللفافة... وأخذ منها نفساً عميقاً... وراح يغني:

"صاح ابن شعبان

ريدوني لكم غني.. بطل غناكم وهرجكم عني"

حلق صوته بعيداً في جهات القرية... فسمعه الكثيرون من الجيران... سمعته زوجة ابن الحمودة وقالت في نفسها: "هذا المساء خير علينا، لأن أبا يوسف مسرور الخاطر ومنشرح الصدر".

وسمعه ابن الأحمد وسمعته زهوة وسمر ورباب. صوت أبي يوسف حنون كطعم اللقاءات على مصطبة شجرته... يجيء هادئاً رناناً ممتلئاً برائحة الأيام والذكريات البعيدة... وهو يغني حين تهز وجدانه ريح التذكر والمساءات الحميمة والشقاء، أو حين تبدأ الأحاديث في السهرات.

أعاد صوت أبي يوسف لزوجة ابن الحمودة ذكرى رحيل ولدها... وذكّرها

www.alkottob.com

بحكاية ابن شعبان القديمة... لكنها لم تبتعد عن شجرة التوت وضوء بيت أبي يوسف الذي ظهر لها من شق صغير في الجدار المقابل لبيتهم...

لم يستمر أبو يوسف بالغناء، لأن صوت ابن الحمودة وابن الصبرة جاء من جهة الكروم منادياً:

-بوزهرة اقترب من البيت يا أبا يوسف.

بلغ صوت ابن الحمودة سمع أم يوسف، فهبّت واقفة وأسرعت في الخروج من البيت، لتعاين باب بيت الدجاجات الخشبي... إن كان مفتوحاً... ولتتأكّد من سلامة عيدانه، ومن وجود جميع الدجاجات. حين خرجت، كان أبو يوسف واقفاً قرب جذع التوتة، وعيناه متنبّهتان إلى كل الجهات خوفاً من ثعلب /بوزهرة/. وصل ابن الحمودة وابن الصبرة مسرعين إلى حيث وقف أبو يوسف:

-السلام يا ابن الكرام.

-وعليكما السلام

-قال ابن الصبرة:

-مساؤك خير يا أبا يوسف.

-ومساؤك يا ابن الصبرة ويا ابن الحمودة. سمعت زوجة ابن الحمودة صوت زوجها، وعرفت أنه جاء وابن الصبرة إلى عند أبي يوسف، ولهذا نهضت، ولبست /حدوتها/ السوداء الشقية، وانطلقت عبر الدرب المؤدي إلى بيت أبي يوسف.

الدرب الواصل بين بيت أبي يوسف وبيت ابن الحمودة ليس طويلاً... يمر من أمام بيت ابن الإسماعيل ووراء جدار بيت أبي يوسف الشرقي... خطوات يسيره عبر درب صغير محفر قليلاً يمشيها القادم من بيت ابن الحمودة إلى بيت أبي يوسف... حتى في الليل ليس صعباً على زوجة ابن الحمودة أن تمشي عبر الدرب المؤدي إلى بيت أبي يوسف... فضوء البيت يصل إلى الدرب تماماً...

ابن الأحمد وزهوة وولدهما الأعرج نظروا إلى جهة بيت أبي يوسف فرأوا ضوء السراج، وسمعوا أصوات ابن الصبرة وابن الحمودة وأبي يوسف. قال ابن الأحمد:

أبو يوسف لن يسهر اليوم عندنا، لأن ابن الصبرة وابن الحمودة ساهران عنده. على البساط القشي جلس الثلاثة، ابن الصبرة وابن الحمودة وأبو يوسف، وقريباً منهم على طرف من أطراف البساط جلست أم يوسف وزوجة ابن الحمودة.

www.alkottob.com

ضوء السراج كان ينتشر في جهات المصطبة، وأغصان التوتة تتسع وتبتعد في عشاء القرية... وكان ابن الأحمد وزهوة يريانها جيداً، ويلمحان أوراقها... ومثلهما رآها كريم وولده حسان ويوسف بوحمود وولده سلمان الذي حزن أشد الحزن لسفر سمر الطويل إلى أختها في المدينة...

***

إذا صدق ظني سمر بنت بن الأحمد لن تعود إلى أهلها إلا متزوجة وزواجها ليس موفقاً يا أم يوسف!.

كان الصبح بهياً، وتغريد الطيور يملأ أفق التوتة، وكان صوت ابن الأحمد عالياً غاضباً على ابنه الأعرج وعلى زوجته، وكان ابن الصبرة منشغلاً بفلاحة أرضه القريبة من الساقية... وكان ابن الحمودة وزوجته في الأرض المجاورة للبيت يلمون أوراق التبغ اليابسة وكان صوت أسعد الشحاذ يحلق في سماء القرية قادماً من جهة الدكان... قال أبو يوسف كلماته وعاد إلى التأمل، وفنجان الشاي ولفافة الدخان المشتعلة... لكن أم يوسف رغم انشغالها بإطعام الدجاجات أخذتها كلمات أبي يوسف بعيداً... وتركتها في دهشة، وحيرة لا تنتهيان، ولهذا عادت مسرعة إلى الكلام:

-ما الذي جعلك تقول إن سمراً تزوجت وزواجها غير موفق؟

-شجرة التوت يا أم يوسف.

-الله أكبر يا أبا يوسف... وهل تنطق شجرة التوت؟

-لا لا تنطق، لكنها تظهر لي بأشكال وأشكال، فأعرف منها أموراً كثيرة وأقدّر أموراً كثيرة...

-وكيف رأيتها حتى عرفت أن بنت ابن الأحمد تزوجت وزواجها غير موفق؟

-رأيتها بين ساقيتين، وكل ساقية فيها وحش. وشجرة التوت بعيدة عنها... ناديتها كثيراً: يا سمر... يا سمر... أنا هنا... اقتربي مني... شاهدي شجرة التوت... لكن سمر لم تسمعني أو أن خوفها من الوحشين منعها من سماع صوتي... ورأيتها تهرب لكن إلى جهة مخيفة، يبدو فيها الظلام ويسمع فيها

www.alkottob.com

صوت البكاء والصراخ.

-يا ستر الله يا أبا يوسف... ما هذه الرؤيا؟

-هذا ما رأيته يا أم يوسف في نومي، وحين استيقظت صباحاً، نظرت إلى جهة بيت ابن الأحمد فألفيت أشجاره ذابلة، وألفيت ولده الأعرج يخرج باتجاه الدكان لا أدري لماذا... وشجرة التوت أراها على غير حالها من الخضرة وطيب الرائحة.

***

أم يوسف لم تستطع أن تهدأ بعد سماعها حديث أبي يوسف، بل انطلقت شرقاً إلى بيت ابن الأحمد، لتعرف من زهوة الخبر الأخير عن سمر وحياتها عند أختها.

مشت كعادتها متمهلة الخطوات، ولم تنسَ أن تميل مع كل خطوة ميلة، وأن تنظر إلى جهة المراعي حيث يبدو مرعاها الخاص بها، لتقطع من عيدانه الأشجار ولتجمع من جهاته الطيون والحطب، من أجل إشعال التنور في المساءات، ومن أجل إشعال النار في الأثفية تحت برميل الماء، وتحت قدور الطعام. تناهى إلى سمع أم يوسف صياح ديك الدجاجات وتناهى إلى روحها وقع الخوف من مصيبة مرتقبة... أحست أن خيلاً تركض وراءها وهي لا تقدر على الركض، وأحست أن الساقيتين اللتين حكى لها عنهما أبو يوسف موجودتان قربها، وأن الوحشين ينشران الخوف في جهات القرية وأن شجرة التوت سيصيبها اليباس، أو ستبتعد هي وأبو يوسف عن عشرتها قسراً...

كادت تجتاز بيت ابن الحمودة دون أن تسلم على ابن الحمودة وعلى زوجته... أخذها الخوف بعيداً، وأضاعها عن شجرة التوت... ولولا أن زوجة ابن الحمودة كلّمتها لبقيت سارحة مع خوفها وهواجسها المرعبة إلى أن وصلت إلى بيت ابن الأحمد...

نادت زوجة ابن الحمودة:

-يا أم يوسف يا أم يوسف... أين أنت سارحة؟

انتبهت أم يوسف من ذهولها...

-نعم نعم يا زوجة ابن الحمودة... أنت هنا ولم أرك... الإنسان معرّض

www.alkottob.com

للسهو والنسيان.

-تفضلي... لنجلس عندنا.

-سأزور بيت ابن الأحمد... لأستخبر عن حال بنتهم سمر...

-وهل حصل لها شيء؟

تقدمت أم يوسف باتجاه بيت ابن الحمودة على مهل: لا أعرف عن أمرها شيئاً حتى الآن، لكن أبا يوسف حكى لي عن رؤيا رآها في نومه فخفت منها وحسبت لها حساباً صعباً...

-أجارنا الله من مصيبة ستحل في القرية... وما هي هذه الرؤيا يا أم يوسف؟

-قال لي: إنه شاهد سمراً بنت ابن الأحمد بين ساقيتين وكل ساقية يوجد فيها وحش... ورأى شجرة التوت بعيدة عنها، ونادى باسمها أكثر من مرة لكنها لم تسمعه أو أن الخوف من الوحشين منعها من أن تسمعه... ولم تقترب من شجرة التوت... ورآها تهرب إلى جهة معتمة...

-معنى هذا أن خطباً ما قد أصاب سمر...

-هل تكون جوهرة زوّجتها من رجل قريب من زوجها؟؟

-جوهرة ذاقت المر من والدها ولهذا تكون فكرت إذا زوجت سمراً تريحها من عيشها مع أبيها وغضبه.

***

لم يمضِ نهار ذلك الحلم، حتى كانت قرية شجرة التوت بأكملها سمعت بما رأى أبو يوسف، وتساءلت عن مصير سمر بنت ابن الأحمد...

أم سلمان ولد يوسف بوحمود لم تحملها نارها، حين سمعت خبر ما رأى أبو يوسف وسارعت إلى زهوة لتسألها:

-كيف حال سمر، وهل ستبقى عند أختها؟

-سافر أخوها إلى المدينة ليستخبر عنها وعن حالها، وحتى الآن لم يرجع...

***

www.alkottob.com

وصل ولد ابن الأحمد إلى المدينة ظهراً، سأل كثيراً عن الحي الذي تقطنه أخته جوهرة وأخيراً وصل إلى بيتها... من بعيد عرفت جوهرة أخاها، عرفته من مشيته العرجاء، لكنها لم تقدّر سبب مجيئه إليها...

-مرحباً أختي جوهرة.

-أهلاً وسهلاً... كيف عرفت أن تصل إلى بيتي... وأنت لم تزرني قبل اليوم؟؟

-استدلّيت من الناس حتى وصلت.

-كيف والدتك ووالدك وكيف رباب وسمر؟

-تغيّرت ملامح قرميد واسوّدت، وبان عليه الحزن الشديد... سألته جوهرة:

-ما لك أخي قرميد... أخبرني، هل طردك والدي من البيت، أم ماذا؟؟

-لا لم يطردني، لكنه أرسلني إلى هنا لأستخبر عن حال سمر...

-عن حال سمر...!!؟؟ هي منذ خمسة أيام تقريباً تركت البيت، ولم تعد، بحجة أنها ذاهبة إلى القرية.

-معنى هذا أن خوف والدي في محله...

-الله، يا قرميد... هل تكون تزوجت وهربت؟

-هذا ما نحن خائفون منه.. خاصة أن والدي شاهد في نومه أن شجرة التوت مقطوعة، وأن بيت أبي يوسف مهجور.

لم تستطع جوهرة أن تتخيل أن شجرة التوت مقطوعة، لكنها خافت خوفاً شديداً، لأنها تعرف تمام المعرفة أن شجرة التوت غريبة وعجيبة بأطوارها وأغصانها وتبدلات حالها... ولأنها تعرف أن بيت أبي يوسف علامة خير على القرية كلها، وإذا أصابته مصيبة، أو انهدم، فذلك نحس كبير وشرّ وضرر...

ابتعدت جوهرة عن أخيها قرميد إلى ذاكرتها... إلى شجرة التوت وبيت أبي يوسف، وتاهت في دروب القرية باحثة عن حكايات أبي يوسف ورائحته وأغانيه... لكن صوت قرميد سحبها من دنيا هواجسها وذهولها:

-آه على سمر خسرناها يا جوهرة!

-هذا حظ كل من ولد في بيتنا يا قرميد!

www.alkottob.com

–أنت محقة يا جوهرة، لكن ما الحيلة؟؟

–لكن ما الحيلة فعلاً يا قرميد؟

–أنا سأعود إلى القرية لكنني لا أعرف ماذا سأقول لوالدي وللجيران ولأبي يوسف وشجرة التوت...

–أبو يوسف يكون تنبأ قبل الجميع بمصير سمر يا قرميد... هل تعرف أنه أول من أخبر القرية بخبر غيابي عن القرية: حين تركت البيت، منذ سنوات. يومها رأى في نومه أن شجرة من الشجرات المحيطة ببيتنا غابت، وأخبر أم يوسف بما رأى، وقال لها: جوهرة بنت ابن الأحمد هربت من البيت يا أم يوسف... وهذا ما حصل فعلاً يا قرميد...

***

–اسمعي صوت أسعد الشحاذ... إنه يغني يا أم يوسف... وأظنه سيجيء إلينا قبل أي أحد...

–أذكر الديب وحضّر القضيب... أسعد صار عند زاوية أرض التوتة.

–نظر أبو يوسف إلى جهة الدرب فرأى أسعد، حاملاً كيسه العجيب فوق كتفه، نظر أسعد إلى الساحة وبيت الدجاجات الخشبي وإلى عتبة البيت، ليتأكد من وجود أو عدم وجود أم يوسف، لأنه يعرف طباع أم يوسف ولهذا يغيّر في حال وجودها من سلوكه: يركن إلى عقله ومسكنته، بينما إذا كانت غائبة فذلك يسمح له بأن يطلب من أبي يوسف الأكل وبعض الفرنكات والقمح... لم يطل أسعد النظر إلى جهات الساحة والبيت، حتى بدت له أم يوسف وفي يده تنكة متوسطة الحجم، وفي حلقه كلام يريد أن يقوله لأبي يوسف. أسعد صديق قرية شجرة التوت منذ سنوات وسنوات، فهو لا ينقطع عن زيارتها أكثر من أسبوعين أو ثلاثة... وإذا تأخر يسأل جيران شجرة التوت عن سبب تأخره... وهو لم يتزوج ولن يتزوج، لأن حظه من الجمال كحظه من الغنى، وحظه من الدنيا كحظ أولاد ابن الأحمد من السعادة، جهة وجهه اليمنى مائلة ميلاناً شديداً حتى يخاله الناظر إليه لأول مرة أنه صفع صفعة قوية، أو أن الجوع أكل بعض وجهه، وعينه اليسرى لا تصلح لشيء إلا كعنوان من عناوين الشقاء المرير... وساقه اليسرى تضامنت مع عينه تضامناً بعيداً، فهي عرجاء عرجاً مهماً في تاريخ الفقر

www.alkottob.com

والتعاسة والشحار والتشرد، وأهميته تأتي من شجاعته في اجتياز الغابات والمسافات المقفرة...

عندما وصل إلى حفاف المصطبة، أنزل عن كتفه الكيس، ووضعه والتنكة قرب جذع التوتة، وأقبل على أبي يوسف مصافحاً بكلتا يديه...

ضحك أبو يوسف، وهو يرى أسعد يسلم عليه بيديه الاثنتين ويحاول أن ينحني تعبيراً عن كثرة الاحترام...

-كيف حال أخينا أبي يوسف؟

-بخير يا أسعد، لكن لماذا تسلم علي بيديك الاثنتين، وكأنك خائف علي من أن أهرب من بين يديك.

والانحناء، لم أرك تتعامل به معي قبل اليوم هل ورثته عن أبيك أو تعلمته من دنياك أو قلدت به أحد محبي الانحناء.

***

خرجت من البيت وفي يدها إبريق الشاي والفناجين، فعلم أسعد أن أم يوسف خصته، بفنجان من الشاي. قام أسعد وأدى التحية من قريب إلى أم يوسف وعاد إلى مكانه سالماً معافى... قبل أن تنهي أم يوسف ملء الفناجين بالشاي، قرر أسعد أن يبدأ الحديث عن سمر وزواجها من ولد قحموص العامودي... ليرضي دهشة أم يوسف ويضمن عدم غضبها عليه... أخذ أبو يوسف رشفة من فنجانه، وأشعل لفافته، وقدم لأسعد لفافة عريضة وأشعلها له...

أخذ أسعد نفساً من اللفافة، وبدأ الكلام مع الدخان واللعاب المتطاير من طرفي شفتيه المتباعدتين... قال:

-هل تعلم يا أبا يوسف أين تزوجت بنت ابن الأحمد؟؟

-وهل تعلم أنت يا أسعد...؟؟

دهشت أم يوسف، وشدت جسدها كدجاجة تنتظر أن تأكل أو خائفة من أفعى... قال أسعد:

-نعم أعلم أين تزوجت وأعرف والد زوجها.

-من هو والد زوجها؟.

www.alkottob.com

–قحموص العامودي.

–آخ ثم آخ على حياة سمر إذا كان ولد قحموص كوالده...

–صدقني يا أبا يوسف الولد ألعن من الوالد، ولا أعرف كيف وقعت سمر هذه الوقعة.

–وهل شاهدت سمراً يا أسعد؟

–نعم شاهدتها وحمّلتني لك ولأم يوسف أطيب السلام. أضاف أسعد من عنده سلاماً لأم يوسف طمعاً في فنجان شاي لاحق...

–وأين شاهدتها؟

–شاهدتها في بيت قحموص العامودي... وهي نادمة، لكنها قالت لي: وقعت بين نارين، والدي من جهة وأختي من جهة، واعتقدت أن ابن قحموص جيد... لكن الحظ لم يخدم، وضاعت حياتي.

–قالت أم يوسف بتعجب:

–سبحان معطي العباد الفراسة والعلم... كيف تنبأت بكل هذا يا أبا يوسف قبل أن تسمع أي خبر عن سمر... كيف عرفت أن سمراً تزوجت زواجاً غير موفق، وكيف عرفت أن أختها جوهرة كانت تفكر بتزويجها من قريب من أقرباء زوجها...

–يا أم يوسف، من يعش مع شجرة التوت البرية كل هذه السنين، يعرف الريح من أين تهب قبل هبوبها، ويعرف الطائر من أين يجيء... ويعرف أن سمراً ستضيع حياتها وأيامها قبل أن تظهر شمس النهار...

***

سكنت سمر وزوجها في غرفة أو شبه غرفة ترابية.. هي في الأصل مستودع للتبن... ولا بد لسمر حتى تصل إليها من المرور عبر البيت ومصادفة والد زوجها قحموص وإخوته وأخواته... وأمه. حين دخلت سمر إلى الغرفة المخصصة لها تذكرت حتى البكاء الغرفة الداخلية في بيت أبي يوسف، وتذكرت بابها الواطئ، وتذكرت أن هكذا غرفاً تكون للتبن والحاجات، فهي دون نوافذ، ودون متنفس...

قالت في نفسها: "ما أتعس حظي وما أشقاني... إنه قدري القاصم للظهر...

www.alkottob.com

هربت من والدي إلى أختي فطلبت مني أن أتزوج قريب زوجها فهربت منها، فالتقيت بولد قحموص العامودي، فأغراني بشبابه وكلامه وغاب عن ذهني أن حياته مع والده أتعس من حياتي مع والدي... يا ليتني صبرت على الدهر والقهر وتزوجت من سلمان فهو يحبني وأنا أحببته وحياته مع والده وأهله مقبولة... لكن ما الحيلة الآن وقد وقعت...؟

هل يقبلني سلمان زوجة بعد الذي حدث وهل يقبل والده وهل يوافقه جيران شجرة التوت؟

بعد أيام من المكابدة والرعب قرّرت سمر أن تهرب من بيت زوجها... لكنها عادت إلى تساؤلها: كيف سينظر إلى جيران شجرة التوت وأبو يوسف؟ وأم يوسف إذا طلبت أن أنام عندها هل تقبل؟ وزوجة ابن الحمودة كيف ستنظر إلي؟

وسلمان... هل يقبل أن أعود إليه؟ وأهلي كيف سأواجههم؟؟ والدي... وأمي... وأخي وأختي رباب وأختي جوهرة... ليت والدي كان كأبي يوسف رحيماً بالحياة وبنا، وليت أشجارنا كانت كشجرة أبي يوسف تلم الجيران، وتبشر بالخير، وتنبئ بالخطر".

كان المساء حزيناً طافحاً بالشقاء وكانت غيوم السماء تفر من الريح دون مطر... وأجنحة مبعثرة كانت تتوه في الأفق كالأحلام مزّقها الخوف وباعد بين بداياتها ونهاياتها... وكانت سمر تقف أمام بيت قحموص العامودي والد زوجها، وتنظر إلى البعيد، فتظهر لها قرية شجرة التوت كغابة خوف ملمومة الأشجار والدروب والأغاني والمراعي...

حاولت سمر في ذلك المساء المكبل بالوساوس والهموم أن تلمح أغصان شجرة التوت، أن تسمع صوت أبي يوسف لكنها لم ترَ إلا عيون الجيران وهي تنظر إلى بيت والدها نظرات غريبة حائرة متعجبة... ولم تسمع إلا حديث الجيران عن غيابها وزواجها وضياعها وضياع أختها وإخوتها وكل أهلها، وعن غرابة طبع والدها وغضبه الدائم، وعن قصة أرضه التي أخذها ابن الحسن بالقوة والحيلة...

خافت كثيراً أن يطول بها الشقاء في غرفتها الداكنة مع زوجها وأن لا ترى شجرة التوت وأبا يوسف فتضيع آمالها الأخيرة، وتهوي نجمة أحلامها في وادٍ سحيق...

***

-ابن الحمودة وزوجته منشغلان بجمع ما تبقى عندهما من تبن يا أم

www.alkottob.com

يوسف.

–وابن الأحمد غائب عن بيته منذ أيام، وزهوة لا تعرف إلى أين يذهب... لأنه لم يخبرها بشيء عن غيابه وسفره، يا أبا يوسف.

–صوت ابن الحمودة وزوجته مسموع إلى هنا، إنهما يحكيان عن غياب ابن الأحمد وعن زواج ابنته سمر غير الموفق.

–هل أنهيت فنجانك، لأدخل الإبريق والفناجين إلى البيت، وبعد ذلك سأجمع البيضات في السلة وسآخذها إلى دكان يوسف بوحمود...

–وأنا قد أذهب إلى عند ابن الصبرة، لأنني سمعت صوته قادماً من جهة الساقية...

–أنت تحب أن تذهب إلى عند ابن الصبرة، سمعت صوته أو ما سمعته.

–الجلسة قرب الساقية والنبع تفرح النفس يا أم يوسف... لكنني أفكر بزيارة بيت كريم قبل الذهاب إلى بيت ابن الصبرة...

بيت كريم يجاور أرض بيت أبي يوسف من الجهة الشمالية الغربية، وهو بيت ترابي يشبه بيت أبي يوسف لكن الأشجار التي أمامه ليست كشجرة أبي يوسف سعة أغصان ورسوخ جذع، وطيب رائحة واخضرار أوراق...

أم يوسف انشغلت بجمع البيضات وترتيبها في السلة من أجل ألا تتكسر أثناء سيرها من البيت إلى الدكان، وأبو يوسف جمع أطراف /قمبازه/ واتجه إلى بيت كريم...

طريق ضيقة قصيرة حملت أبا يوسف من على مصطبته الترابية تحت شجرة التوت وقذفته برفق إلى بيت كريم...

حينما وصل كانت زوجة كريم قد انتهت من طبخ قدر كبير من /القمحية/ وكان حسان ولدها منشغلاً بأوراقه... وكان سلمان ولد يوسف بوحمود يتجه إلى حيث وقف أبو يوسف أمام بيت كريم... سمع حسان صوت أبي يوسف، فأسرع لملاقاته والجلوس معه.

قال أبو يوسف حين رآه ورأى سلمان قادماً ورأى زوجة كريم تعد له صحناً من القمحية:

"عليم الله أنني أرتاح عندما أجيء إلى هنا... إنني أشعر بحبي لأولادكم جميعاً، أنسى همومي حين أراكم...

www.alkottob.com

وأحب إلي وأطيب أن آكل الخبز والزيتون، وأن أنام تحت المطر والرعود في هذه القرية، فوق مصطبتي مع نقيق أم يوسف من أن آكل اللحم والمرق في غرف أولادي... والله لا أتمنى أن أهجرها...

في هذه القرية أحس بالفرح، وحين أغيب عنها نصف النهار أشتاق إليها، وكأنني غبت عنها شهراً كاملاً... لا تنبسط مشاعري، ولا تنشرح أساريري إلا في بيتي جوار شجرة التوت... أنام أنا وأم يوسف في عرزالنا وتحتنا مقاقات الدجاجات وقرب سمعنا صوت الحمامات والأفراخ... سافرت إلى تركيا واليمن، وحاربت الأتراك والفرنسيين وشقيت في السعي وراء لقمة العيش، وابتعدت في هذه الدنيا، لكن شجرة التوت بقيت في روحي وحياتي، وبقيت أبحث عن صبح أفتح عيني عليه أمام بيتي قرب جذعها... عشت حياتي كلها أصبر على الجوع، وعندما أشبع خبزاً أحس أنني في نعمة لا تنتهي، أشعر أنني مرتاح ومسرور، فأرى الدنيا واسعة طيبة العيش... كم شقيت في الفلاحة والركض وراء الرزق، كنت أبقى النهار بطوله دون أكل، وفي العشاء حين أعود إلى بيتي وأخلع حذائي وأتمدد قرب شجرة التوت، وبعد قليل تأتيني أم يوسف برغيفين من الخبز وبيضتين مسلوقتين... كنت أنسى تعبي وجوعي ونهاري المرير." حسان وسلمان انشدّا إلى حديث أبي يوسف، وتمنيا أن يستمر فيه لكنه انقطع عنه لانشغاله بلف لفافة التبغ:

-أنتما ألا تلفان من علبتي... أنتما متعودان على العلب الجاهزة.

رد حسان:

-نتمنى أن نتعود على علبتك فهي أفضل من علبتنا.

-الخير فيك يا حسان وفي سلمان الحزين لزواج سمر غير الموفق...

صمت سلمان... وحسان أيضاً صمت لأن أبا يوسف أخذ صحن القمحية الذي قدمته والدته وبدأ يأكله.

بعد أن أنهى صحن القمحية، تناول علبته ولف منها لفافة عريضة، وأشعلها ونهض... قال له حسان:

-نتمنى أن تشرب عندنا الشاي.

-في المساء نشربها عند شجرة التوت، والآن سأذهب إلى ابن الصبرة. على مهل انطلق أبو يوسف بقامته الصغيرة التي أتعبتها ضربات الدنيا القاسية... باتجاه بيت ابن الصبرة. قال حسان لسلمان:

www.alkottob.com

تجاعيد وجه أبي يوسف تحكي تفاصيل حياة صعبة وتروي سيرة عيش مرير، لكن عينيه لم تفقدا بريق صباحات شجرة التوت وملامحه لم تخسر بهجة الحنين إلى البراري والوفاء، وفمه محتفظ حتى اليوم بجمال النطق والأغاني القديمة وحكايات الأيام البعيدة...

من بعيد يعرف الجيران المنتشرون في أراضيهم وأمام بيوتهم أين تتوجه خطوات أبي يوسف... ابن الصبرة قال لزوجته وقد رآه ينطلق من جهة بيت كريم:

-قدما أبي يوسف ستقودانه إلينا.

-هو الآن يمشي باتجاه الساقية، لكن لا تعرف إن كان سيتجه بعد الساقية إلى بيت ابن الصالح أو إلى بيتنا؟؟!!.

-لا... سيتجه إلى بيتنا...

تربط ابن الصبرة بأبي يوسف عشرة طويلة، تبدأ تخومها بالفلاحة والشقاء والجوع وشجرة التوت، وتنتهي بالعيش وشجرة التوت.. قبل أن يصل إلى شجرة الزنزلخت التي قدّام بيت ابن الصبرة تأكد من وجود ابن الصبرة... لأن ابن الصبرة مشى باتجاهه...

-أهلاً بأبي يوسف...

-أهلاً بالمؤهل أكثر...

-تفضل...

-الجلسة تحت الأغصان تسرني وتريحني.

-لأنها تذكرك بشجرة التوت...

-سأظل أرى المصطبة وشجرة التوت والرائح والغادي من هنا.

-شجرة التوت تشرف على المروج والمراعي والساقية وكل بيوت الجيران.

-هذا الكلام صحيح... لكني يا أبا محمود في هذه الأيام أشعر بتغير شجرة التوت...

-هذا الفصل حار وهذا هو السبب...

-السبب أبعد من الحر، والعطش... أنا أعرف شجرة التوت خير معرفة، عشت معها دهراً طويلاً... جاء صوت أم محمود من جهة البيت:

-لا تكدّر بالنا على شجرة التوت وعلى حالنا وحال كل الجيران.

www.alkottob.com

–أنا أتأمل الخير ولو كان لغيري فكيف إذا كان الأمر بشأن شجرة التوت يا أم محمود.

–اليوم فكرت بأن أقشر علبة قمح للقمحية في الجرن، لكنني شاهدت أم يوسف منذ الصباح تحمل سلة البيض وتتجه إلى الدكان.

–الجرن ليس لأم يوسف وليس لأحد لوحده، فهو لكل جيران شجرة التوت للبعيدين والقريبين... وأم يوسف كما تعرفين كل يوم أو كل يومين تجمع البيضات وتأخذها إلى الدكان.

***

دكان يوسف بوحمود أو دكان قرية شجرة التوت غرفة واحدة ترابية، لا تتصل بأي بيت إلا بيت سبهة التنورية بطرفها الغربي، لأنها في الأصل لم تكن ليوسف بوحمود، بل اشتراها في سنة مبكرة من سنوات عمره الممتلئ بالشقاء والجوع والبحث عن العيش... اشتراها من /سبهة/ التنورية أخت /صالح التنوري/...

وصلت أم يوسف إلى ساحة الدكان قبل الضحى، فصادفت أول من صادفت قبل دخولها إلى الدكان سبهة التنورية... كانت تسرح شعرها بمشط خشبي طويل الأسنان وتستعيد ذكريات أيامها وحياتها...

كادت أم يوسف تصطدم بسبهة دون أن تنتبه سبهة لها، لأن أم يوسف تمشي مشية عجيبة وكأنها نملة ضخمة تسعى في الدروب، فلا يسمع لخطواتها أي صوت... قالت:

–شايفة سبهة منشغلة بتمشيط شعرها، وكأنها عروس جديدة.

–الله أنت هنا ولم أرك يا أم يوسف...

أهلاً وسهلاً... تفضلي اجلسي.

–سأسلم البيضات ليوسف وآخذ منه المقابل قبل أن تنكسر منها أية بيضة...

–الله عليم أنك لو تمشين على البيض يا أم يوسف لا ينكسر... لأنك تتمهلين حتى لا يسمع لمشيتك أي صوت. لم تتابع أم يوسف حديثها مع سبهة التنورية، بل أسرعت إلى الدكان... رآها بوحمود وهي تتقدم من جهة سبهة

www.alkottob.com

باتجاهه... فأهّل بها قبل أن تصل:

قال له:

-أهلاً وسهلاً بأم يوسف...

وبالمؤهل أهلاً وسهلاً يا بوحمود.

-البيضات اليوم كثيرات كما أرى؟؟

-جمعت بيضات الدجاجات البارحة واليوم...

-هات السلة...

-تفضل...

قدّمت أم يوسف السلة القصبية بتأن، وانتباه شديدين، وكأنها تقدم روحها، لكن يوسفاً استلمها بسرعة كعادته، ووضعها على الرف الخشبي الفاصل بين المشترين وبينه، وأخذ يتناول كل بيضة على حدة...

-كل بيضة لوحدها يا أم يوسف!!

-لتعرف أن أم يوسف أنبه من حضرتك.

-أنت على الرأس وأنت ست الكل يا أم يوسف.

-تسلم يا يوسف.

-أبو يوسف أين هو اليوم؟

-وقت بدأت بجمع البيضات كان أمام بيت كريم وكان ولدك سلمان وكان حسان ولد كريم وكانت زوجة كريم، وبعد وقت قصير شاهدته يمشي صوب المروج، فقدّرت أنه سيذهب إلى بيت ابن الصبرة أو إلى بيت ابن الصالح. لم ينته حديث الدكاني بوحمود وأم يوسف، لأن أصوات ابن الصالح وابن الصبرة ارتفعت.

قالت أم يوسف:

-ابن الحسن- اللعنة عليه- أخذ أرض ابن الأحمد- وأنت تعرف بالمكر والحيلة، ويحاول الآن أن يأخذ أرض ابن الصالح...

خرج يوسف بوحمود من وراء الرف الخشبي مسرعاً باتجاه الساحة... وقف على حفاف الساحة ونظر بإمعان إلى جهة أرض ابن الصالح فلمح ابن الصالح وابن الصبرة وأبا يوسف وابن الحمودة ولمح الماكر- ابن الحسن- قال لأم يوسف:

www.alkottob.com

–هذا الماكر ابن الحسن ألا تريحنا الدنيا منه، أخذ بالحيلة أرض ابن الأحمد ودمر حياته وعمره والآن يحاول أن يأخذ أرض ابن الصالح..؟؟!!

–إنه يشبه ثعلب /بوزهرة/.

–قولي: ألعن من /بوزهرة/ وأخطر على الجيران.

–هو بحساباته يفكر أن يأخذ أرض ابن الصالح ويضمها إلى أرض ابن الأحمد.

–وأرض ابن الصالح متاخمة لأرض ابن الأحمد، لكنني أرى أن الضجة قويت، وأن الناس يتراكضون... وأنا سأغلق باب الدكان وأركض إلى مكان اجتماعهم، وفي الغد أحاسبك بثمن البيضات...

–حيف عليك يا يوسف... وكأنني خائفة عليك من أجل البيضات... اذهب وساعد ابن الصالح على مصيبته.

المسافة التي تفصل أرض ابن الصالح، حيث اجتمع الناس، عن الدكان ليست بعيدة، لكنها ليست مستوية... وأحفتها كثيرة ولهذا لا بد ليوسف من أن يتمهل أحياناً... وإلا تتناوله الأحفة، وتلقي به إلى أحد المروج، فينكسر... وبذلك لا يساعد ابن الصالح، ويصبح بحاجة لمساعدة الآخرين.

تراءى له وهو يتقدم عبر المروج ابن الحسن برأسه المفلطحة كحجر الجرن وشعره الأشيب وعينيه المتلفّتتين وشفتيه السميكتين جداً كجلد حذائه...

وقف أبو يوسف بقامته المحنية قليلاً، وراح يراقب ابن الحسن. وصل يوسف بوحمود إلى حيث وقف أبو يوسف واقترب منه.

–ما سبب الخلاف؟؟

–الماكر ابن الحسن...

أخذ أرض المشحر ابن الأحمد وأراد أن يأخذ أرض ابن الصالح، لكنه أخذ نصيبه من الضرب... ابن الصالح رجل وقلبه كالحديد. نظر يوسف إلى المجتمعين... وراح يعاينهم واحداً واحداً، ويستمع إلى أصواتهم العالية...

–أنا هنا في أرضي، ولن أتركها إلا بالرحيل عن الدنيا يا ابن الحسن يا ثعلب يا مكّار... صمت ابن الحسن لأنه عرف أنه إن تكلم ستناله يد ابن الصالح بالضربات، وبعد لحظات فكر بأن يصعد إلى بيته.

قال أبو يوسف:

www.alkottob.com

–انظر إلى أرض ابن الأحمد، كم شقي والده بأشجارها، وكم عاش فيها، كان لا يتركها طوال أيام الصيف... ألا تشاهد مثلي تخمها المغطى بعرائش العنب... والعلّيق.

–نعم أرى أرض ابن الأحمد وأرى شجرة التوت.

–نظر أبو يوسف إلى شجرته، فألفاها حزينة، وكأنها في حداد لا ينتهي.

بعد وقت قصير ترك ابن الحسن الارض والمجتمعين دون أية كلمة... ومثله فعل ابن الصالح وابن الصبرة وابن الحمودة وأبو يوسف وبوحمود.

***

كعادتها أم يوسف كل يوم تحصي عدد الدجاجات والأفراخ، وتطعمها، وتدخلها إلى بيتها الخشبي وتغلق وراءها الباب. لكنها هذا المساء وجدت بعض الدجاجات مفقودة، فأطلقت صوتها عبر الفضاء:

–الذي سرق هذه الدجاجات يبليه الدهر بالعمى والفقر والتشحير... ومئة لعنة ولعنة عليه وعلى كل أهله... سمع كل جيران شجرة التوت صوت أم يوسف وعرفوا أن بعض دجاجاتها وأفراخها مفقود... سمعتها زوجة ابن الحمودة، ومشت مسرعة باتجاهها:

–خير يا أم يوسف... هل راح من الدجاجات شيء؟...

–غائب ثلاثة أفراخ وأربع دجاجات كبيرات.

–أوف... أوف... المصيبة ليست هينة... عادت أم يوسف إلى سبابها وشكواها:

أنا كيف تركت البيت اليوم لا أعرف... أنا كيف أمنت على دجاجاتي أن أتركها للماكرين وأولاد الحرام...

كان المساء موحشاً، وكانت شجرة التوت على غير عادتها ذابلة... وكانت رائحة الفجائع والمصائب تضج في دنيا القرية... وقت غابت دجاجات أم يوسف... أبو يوسف كان في المدينة عند أولاده أو في مكان آخر، ولم يعرف بفقدان الدجاجات إلا حين رجع وسمع صوت أم يوسف...

قال في نفسه وهو يتجه إلى المصطبة:

www.alkottob.com

"أيكون /بوزهرة/ سرق الدجاجات أم أن أحداً من أولاد الحرام فعل فعلته اللئيمة، أم أن شجرة التوت ليست على حالها من الخضرة وزهو الأغصان؟؟ كل شيء وارد يا أبا يوسف... لكن الأصعب في هذه الأمور هو أن تذبل شجرة التوت أو أن أتركها..."

–أراك غاضبة يا أم يوسف... طولي بالك، والرزق على الأيام.

–أنت دائماً لا يهمك إلا أن تجلس تحت شجرة التوت وتشرب الشاي وتشعل لفافات الدخان، لكن إذا فقدت الدجاجات من أين ستشرب الشاي والدخان؟

–أنت محقة يا أم يوسف /بوزهرة/ لعين... ولا نقدر أن نمسك به.

–أنا لا أرى أن /بوزهرة/ هو الذي أكل الدجاجات.

–لكن بمن تشكين؟

–ابن الحسن– وأنت تعرفه– ماكر كالثعلب، وقد يكون أرسل من يسرق الدجاجات أثناء غيابي وغيابك..

خاصة بعد أن حاول أخذ أرض ابن الصالح ولم يستطع.

–تقديرك للأمر في محله يا أم يوسف... ابن الحسن أراد أن تدب الفتن والخوف في القرية، وبعد ذلك يضعف ابن الصالح، ويأخذ أرضه، ويضمها إلى أرض ابن الأحمد وهو بدأ من دجاجاتنا، لأنه يعرف أننا نعيش من مردود بيضها، وإذا فقدناها سنجوع، وربما نذهب إلى أولادنا في المدينة، وبذلك تضيع القرية، ويبتعد الجيران، وتذهب أرض ابن الصالح... وتيبس الأشجار ويقوى بوزهرة وابن الحسن على الدجاجات وأصحابها، وتصير قريتنا وشجرة التوت ذكرى من ذكريات الأيام.

/بوزهرة/ لعنة على الدجاجات والقرويين... وتسميته مشتقة من هيئته، فهو حيوان صغير، في ذيله بقعة بيضاء ولهذا أسماه الناس /بوزهرة/ والكثيرون منهم يقرنونه بطريقة عيشه وبالأذى الذي يجره بابن الحسن...

أم يوسف قطعت على أبي يوسف ذهوله وحيرته وهواجسه الخائفة:

–صدقني يا أبا يوسف أن ابن الحسن ألعن من ثعلب /بوزهرة/.

***

www.alkottob.com

–في المساء عادت سمر... يا أبا يوسف، وهي لم تذهب إلى بيت أهلها خوفاً من والدها.

–أين ستنام إذا لا تنام في بيت أهلها؟

–ربما في بيت كريم أو بيت ابن الحمودة.

–ولماذا لا تذكرين بيت أبي يوسف، فهل ترفضين أن تنام عندنا في البيت يا أم يوسف؟

–لا أعرف... وقد جاء أخوها الأعرج وسألني عنها.

–ما أشقى حياة أولاد ابن الأحمد... سمر من أجمل الصبايا ومن الحسناوات في حديثهن وعيشهن مع الناس، لكن حظها تعس.

كانت سمر قريبة من صوت أبي يوسف وسمعت أكثر كلامه، ورأت ضوء سراجه يضيء فضاء أغصان التوتة، لكنها لمحت تغيراً أو حزناً أو خراباً بادياً في دنيا القرية كلها... إلا أنها لم تفهم ذلك التغير في ذلك المساء... كانت مأخوذة بضجيج أعماقها وبالخوف الشديد من حياتها. كلما حاولت أن تفكر بشجرة التوت وبأبي يوسف، وتنظر إليهما تصرخ في أعماقها المخاوف، وتضج الانهدامات والفجيعة... لم تكن تبتعد عن البيت أكثر من أمتار، كانت أمام بيت ابن الحمودة عند زوجته، لكن خيبتها كانت تسد عليها الأفق وتبعدها عن دنيا شجرة التوت وأبي يوسف... كان الشعور بأن العار يلف عمرها كأفعى طويلة طول الأيام...

فرشت لها زوجة ابن الحمودة حصيراً ووضعت فوقه فراشاً قرب النافذة المشرفة على شجرة التوت وبيت أبي يوسف... طوال الليل لم تفارقها الأحلام المخيفة، وما أن أخذها النوم لحظة حتى تبدّى لها والدها يحمل عصاه ويركض خلفها وهي تركض في مسافات القرية... ورأت نفسها تحاول أن تهرب إلى شجرة التوت وأبي يوسف، لكنها لم تشاهد شجرة التوت، ولا أبا يوسف، لأن شتاءً عاصفاً هدم طرفاً من أطراف بيته، وبعد ذلك أخذه أولاده إلى المدينة حيث يقيمون، وقطعوا شجرة التوت قطعاً صعباً...

استمر نومها قلقاً ولم تستطع أن تستيقظ إلا على صراخ زوجة كريم القوي:

–يا جيران... لم يترك /بوزهرة/ ولا دجاجة من دجاجاتي إلا قتلها.

***

www.alkottob.com

-الشتاء على الأبواب يا أبا يوسف ألا تفكر بدحل بيتك وتطيينه؟

-الهمة تعبت يا أبا محمود... والشتاء مقيت، لأنه يجبرنا على الدخول إلى البيوت، والجلوس فيها قرب الموقد.

-لكل فصل حال يا أبا يوسف.

-لكن الفصل الذي يتركني قرب شجرة التوت أقرب إلى روحي من الفصل الذي يبعدني عنها. دار هذا الحديث بين ابن الصبرة وأبي يوسف قرب جذع شجرة التوت، وابن الحمودة وزوجته يسمعان كل كلمة، لأنهما كانا أمام البيت يرقبان ملامح الشتاء القادم.

قال ابن الحمودة لزوجته:

-بيت أبي يوسف من البيوت المتينة رغم أنه لا يطينه كثيراً.

-كل شيء في حياة أبي يوسف قوي يا ابن الحمودة، بيت أبي يوسف وشجرة التوت علامتان فارقتان في القرية كلها... ولم يخطر في بال أحد من الجيران أن بيت أبي يوسف سينهدم مهما أتت عليه سنون وشتاءات قاسية، وأن شجرة التوت قد تيبس أو تقطع أو تغيب من دنيا القرية...

***

-هذا الشتاء قاسٍ وعاصف يا أم محمود.

-أنا خائفة منه على أبي يوسف، لأنني لم أره في عمري مثل هذه السنة متخوفاً من كلام أولاده وإلحاحهم عليه، ليذهب معهم إلى المدينة... ويترك القرية... كان صوت الريح قوياً وكان ابن الصبرة يحاول أن يزيد من اشتعال الموقد، وأم محمود إلى جواره تصحو وتستيقظ. تسهو حتى تهدأ الريح ويبتعد صوتها، وتستيقظ خائفة حين تتحرك الريح قوية ويعود صوتها مزمجراً مخيفاً...

بعد إغفاءات متلاحقة قال أبو محمود:

-قومي إلى فراشك يا أم محمود...

-سأقوم... لكن لا تنس أن تنظر إلى بيت الدجاجات، لتتأكد من إغلاقه، ومن أن /بوزهرة/ ليس موجوداً.

www.alkottob.com

نهض ابن الصبرة، لبس معطفه القديم، ولف رأسه بالشملة المخصصة للشتاء... وفتح باب البيت بتأنٍ خوف أن تدفعه الريح وتدخل إلى البيت، وتطفئ الموقد وتنشر جمراته في أنحائه...

نظر إلى بيت ابن الصالح فألفى ضوء قنديله شحيحاً، يكاد لا يبدو...

***

لم يرتعب ابن الصبرة من شدة الريح واسوداد الليل... فقد خبر الشتاءات وعرف رياحها ولياليها الداكنة، لكنه حين أراد أن ينحدر باتجاه بيت البقرات مشى بتمهل حذر أن تنزلق قدمه، أو تصطدم بشيء...

تأكد من أن باب بيت البقرات والدجاجات مغلق، وحاول أن ينظر إلى الدجاجات بحثاً عن /بوزهرة/ فلم يصادف إلا الليل الداكن، والبرد. حاول أن يصغي إلى أي صوت آتٍ من جهة الساقية أو من جهة بيوت الجيران، لكنه لم يسمع إلا صوت صفير الريح... تمنى أن يرى ضوء قنديل أبي يوسف أو يسمع صوته أو يلمح أغصان شجرة التوت، لكن تمنياته ذهبت مع الريح... لأن صوت الريح كان أقوى من أي صوت، وستار الظلمة كان كتيماً، لا يسمح للناظر أن يرى أضواء القناديل البعيدة... قال ابن الصبرة، في نفسه: "لا يمكنني الآن أن أذهب إلى بيت أبي يوسف، لأن الريح عاتية، ولأن السماء ستمطر قريباً، ولأن أم محمود تخاف إن تركت البيت وذهبت في هذا الليل الداكن البارد والريح تعصف بكل شيء.

***

جاء الأولاد ضحى والقرية تنظر بعيون محزونة إلى جهة بيت أبي يوسف الذي دعموه وأعادوا بناء حائطه بسرعة... جاء الأولاد والحائط قد أعيد بناؤه... لكن الريح والشتاء بقيا...

قال الأولاد لأبي يوسف:

–ستذهب معنا أنت وأمنا... وتعيش معنا في المدينة...

www.alkottob.com

–لا يا أولاد لن أذهب معكم، وأمكم لن تذهب...

–تذهب وتبقى عندنا حتى ينتهي الشتاء.

–لا يا أولاد... لم يبقَ من العمر إلا بقية... أحب أن أعيشها حيث عشت عمري كله تقريباً...

–إذا ذهبت معنا يمكنك الرجوع إلى هنا حين يسمح الطقس بالرجوع، وينقطع المطر، وتهدأ الريح...

–إذا ذهبت معكم من أين لي أن أخرج كل صباح إلى الدروب وأزور بيوت الجيران، وأرى شجرة التوت والطالعين والنازلين والرائحين والغادين.

ابن الحمودة وابن الأحمد وابن الصالح ردّوا بلسان ابن الصالح:

–أبو يوسف جارنا وقريبنا من يوم بعيد، ولا نريد أن يتركنا، ونخسره. لكن الأولاد لم يقبلوا بأن يبقوا والدهم في البيت الترابي في الشتاء العاصف الماطر، لأن الناس يلومونهم... حاول الجيران جميعاً أن يمسكوا بأبي يوسف، أن يتعلقوا بثوبه وشملته راجين أن يبقى وتبقى إشراقته السمحة تفتح نهارات القرية، وتنشر في دنياها البهجة، لكن القدر والحظ والشتاء والأولاد... كل شيء كان ضد القرية...

قال للجيران وهو يفكر بالمدينة وعيشها الذي لم يألفه:

–صدقوني– يا جيران– إن قلت: إنّ قلبي متعلق بحجارة البيت والعيدان... بكل صوت يطلع من هذه الضيعة... ولن أهجر بيتي وشجرة التوت وهذه القرية إلآ لأيام قليلة...

***

أخيراً غادر أبو يوسف الضيعة وشجرة التوت وبيت الدجاجات الخشبي والدروب المؤدية إلى بيوت الجيران... حاول أبو يوسف أن يمسك بجذع شجرة التوت التي عاشرها منذ طفولته... والتي عرفت حياته صباحاً صباحاً ومساء مساء، وجوعاً جوعاً، لكن الأيام وتبدلات الدنيا كانت أقوى من أبي يوسف وجعلته يذهب إلى أولاده تاركاً القرية في جلبة لا تنتهي..

***

www.alkottob.com

أم محمود، بعد أن ترك أبو يوسف القرية بشهور، ظلت تأتي بالقمح واللبن وتأكل قرب التوتة في المكان الذي تعودت أن تجلس فيه دائماً، تبكي وتتذكر... حاول الجيران إقناعها بالرجوع عن حزنها وأساها، لكنهم لم يستطيعوا:

-أنا لا أستطيع أن أنساها، وكلما نظرت إليها تمر بقلبي عاصفة من البكاء... إننا بعد ذهابه لم نرَ الخير...

. يا الله يا أم محمود... هذه حال الدنيا تتقلب من الفرح إلى الحزن... من الشدة إلى الرخاء... من المصائب إلى الفرج والحمد لله هو بخير وعيشه عند أولاده أفضل له من أن يظل تحت الوكف والبرد...

لكن محاولات الجيران ذهبت دون جدوى لجعل أم محمود تنسحب من دائرة حزنها إلى دائرة النسيان... ومثلها كل جيران شجرة التوت بقوا يتذكرون أيام أبي يوسف وشجرته ومصطبتها، ولا شيء يقدر على جعلهم ينسون...

وبقيت التوتة وبقيت أسراب العصافير ترفرف فوقها وتخفق بأجنحتها عبر الأفق، وتغرد أغرودة الحياة والحنين... مع طلوع الشمس تستيقظ فلا تترك أغصانها حتى المغيب، وكأنها تعيد احتفالات مضى عهدها وتستذكر ماضياً موغلاً في العيش والأيام...

***

طائر كبير، جناحاه أخضران يشبهان البحر والبراري كأن عليهما زغباً من عشب نابت بعد مطر طفيف، بقي يحط على الغصن الذي كان يجلس تحته أبو يوسف، ويغرد محزوناً كما قال ابن الأحمد:

ـ ما رأيت أسىً تحمله الطيور، كذلك الذي يحمله هذا الطير. في صوته خشوع العارف بما جرى...

***

www.alkottob.com

www.alkottob.com

الفصل الثاني

لزم يوسف بو حمود دكانه في الحارة التحتانية ليس حرصاً على البيع والربح بل حرصه على وصاله مع قريبة سبهه التنورية هو الذي ألصقه بالدكان والعمل به.

الدكان غرفة ترابية، بابها مفتوح على الدرب الواصل بين الحارة التحتانية والحارة الفوقانية. ومن جهة مفتوح على مصطبة بيت سبهه وأخيها صالح. وكانت المصطبة محط اهتمام وحب يوسف، لأن قريبة سبهه لا تنقطع عنها، ونبض قلب يوسف لا يتوقف تعجله وقلقه ما دامت الشمس تشرق عليه من جهة المصطبة.

ويزداد قلقه أكثر وأكثر حين تأتي الحبيبة، تبغي الابتياع من الدكان، يحاول يوسف أن يقول الشعر، وهو يكلمها، فلا ينطلق لسانه... تربكها نظراته فيضعف نطقها، ويزداد ألقها، وكأن الخفر كياسة تضاف إلى كياستها، فيعلق قلب العاشق أكثر بالعشيقة.

تشتري حاجاتها، وتطلب من يوسف أن يكتب أمام اسم عمتها سبهه تلك الحاجات وتكلفتها، فيرفض كتابة اسم عمتها ويكتب اسمها، ولا يكتب أمامه اسم الحاجات وتكلفتها، بل يخربش خربشة لا يعرفها هو نفسه ولا هي تعرفها.

بعد لحظات من خروج قريبة سبهه، وصل ابن الأحمد على غير عادته حاملاً كيسه الأبيض المملوء بما لذ وطاب وبغير اللذيذ والطيب.

كيس ابن أحمد مشهود له بالشجاعة والغنى والتنوع، يتسع في أكثر الأحيان لعلب الحلاوة، والفاكهة والأحذية العائدة من الإصلاح، وأحياناً الأحذية الجديدة...

ينتقي ابن الأحمد حذاءه بعناية خاصة يختاره من المتانة بمكان، ولا بد لأي حذاء يريد أن يلبسه أن تتقدمه فتحات خاصة بالرباط، وإلا فلن يقبل انتعاله وقد

www.alkottob.com

سأله يوسف بو حمود مشيراً إلى الحذاء الذي ينتعله ابن الأحمد.

. لمَ تختار هذا النوع من الأحذية؟

أجابه:

. هيبة الحذاء من رباطه.

ضحك يوسف ضحكته المعهودة، التي لا تكاد تبدأ، حتى تضيع في زحمة مخاوفه وأحزانه، لكنها هذه المرة اختفت في زحمة تلهفة وقلقه إزاء الحبيبة التي تخرج إلى المصطبة بين الحين والحين.

ابن الأحمد لم ينتبه إلى نظرات جاره، لأنه لا يفهم كثيراً نظرات الحب. فأهم فنون الغرام بالنسبة له هو أن يتمكن الحبيب من قرص من يحب وإلا فالحب عنده يبقى ناقصاً وقاصراً وتعيساً.

همّت سبهه إلى الجرة التي أمام الباب، فلاح لعينيها الأفق جميلاً وتناهى إلى سمعها صوت ابن الأحمد، فعرفت أنه في الدكان، وتأكد لها وجوده فيها، حين رأت الكيس الأبيض المربوط، الممتلئ بالحاجات المتنوعة. ملأت سبهه الإبريق من فم الجرة وأسلمته لقريبتها، فدخلت القريبة الحسناء، التي أشعلت نار الهوى في فؤاد يوسف بو حمود، وصوت سبهه يسبقها وهي تنادي أخاها يا صالح... يا صالح.

رد صالح:

. ما بالك يا سبهه تنادين على أخيك الصالح؟

عرف ابن الأحمد ويوسف أن صالح الجبيلي أو صالح التنوري في الحواكير القريبة، يلم أوراق التبغ اليابسة، أو أنه يرعى الخراف والبقرة، التي يعتني بها كي لا تجوع أو يصيبها الهزال، فيسقط في مستنقع العوز والتهلكة...

والجبيلي شقيق سبهه، معروف بطباعه العجيبة في حكاية الأحداث التي يعرفها أو يتخيلها. وهو يحاول أن يتفاصح في الحديث، فلا يستمر تفاصحه قليلاً أو كثيراً، لأن صدأ التعاسات في عمره وروحه وحلقه، يقطع عليه أمر الفصاحة. فغصّة الشقاء لا تدع لأي صوت أن يعلو صوتها.. وصوت الشقاء ليس فصيحاً.

بعد طول نداء ورد بين سبهه وأخيها، صعد عبر دريب الحواكير وأمامه الخراف والبقرة.

أحفة الحواكير، المكسوة بعشب الربيع، تبدو كأنها ترتدي وشاحاً صوفياً كبيراً

www.alkottob.com

أخضر اللون... والحواكير تترامى حتى أرض وابن الصالح وابن الأحمد، التي استولى عليها ابن الحسن.

عينا يوسف لا تعرفان النظر إلى غير المصطبة، وأذناه تحاولان الإصغاء إلى كل همسة أو حركة، أملاً منهما في أن توفقا إلى صوت الحبيبة التي غدت تسرح في باله وتمرح كسرحان خراف الجبيلي في الحواكير والمروج المعشبة. يحس يوسف حين تبين قريبة سبهه أن سرباً من طيور الهناءة والأمل، حلّق في خافقه وروحه، وحين تتكلم يحس بأن صداحاً عتيقاً استوطن وجدانه، فأحبه.

ابن الأحمد لم تشغل باله الشواغل ذاتها، وهو منذ عهد غير قريب طلّقت نفسه أمر العشق. وكيف يعشق وعمره مكبل بالأسى الضارب والصراخ الدائم، والعشق يحتاج أحياناً إلى الصوت الخفيض الحنون؟ ابن الأحمد ودع الحنان، قبل أن يحتفل به، ولعل هذا الوداع كان قبل ولادته. وعداؤه مع الحنان يظهر في ملامح وجهه، وفي نظراته الأسيانة، وهو يعاين الحواكير والمروج وحفاف أرض أبيه العالية.

دفع الجبيلي بالخراف إلى الغرفة الخربة القريبة من المصطبة... وأغلق وراءها الباب، ثم انشغل بربط البقرة في شجرة التين.

عادت سبهه إلى المصطبة وعادت شياله قريبتها، التي عذبت روح يوسف حباً وشوقاً واحتفاءً. صوت الكؤوس أيقظ في ابن الأحمد صورة شجرة التوت وأبي يوسف والمصطبة، التي كانت تلم الجيران، قدر أن سبهه نادت أخاها صالحاً ليدعوهما إلى شرب الشاي، ويرحب بهما خاصة أن علاقة طيبة كانت تربطه بوالد ابن الأحمد.

صدقت نبوءة ابن الأحمد، وصدق صوت الكؤوس. أقبل صالح محني القامة أعشى العينين قليلاً، قدماه أتعبتهما الدروب التي عبرها وراح فيها وجاء...

باب الدكان مفتوح تحيط به الرفوف المثقلة بالحاجات والأغراض. في صدر الدكان، رفوف عالية وضع عليها الدكاني علب الراحة والحلاوة، وغيرها... وعلى أرض الدكان كرسي كبير له مسند واسع وقوائم متينة ترتفع عن الأرض قليلاً... هذا هو كرسي الحلاقة. فيوسف لا يكتفي بالبيع، بل يحلق لأصدقائه وللجيران ولكل راغب بهندسة شعره وتزيينه.

إلى جوار كرسي الحلاقة، تستريح عدة الحدادة البسيطة. مطرقة كبيرة قريبة الشبه بمقدم رأس ابن الأحمد ومطرقة صغيرة وأسياخ متفاوتة السماكة والأحجام

www.alkottob.com

من القصدير وبابور صغير متشح بالسواد دائماً كملامح صالح الجبيلي وشملته الضاربة إلى السواد، رغم أنف الدهر.

والمميز في دكان يوسف بو حمود أنه جامع شامل لكل ما تريده الحارات الفوقانية والتحتانية والشمالية والجنوبية والغربية والشرقية، ويوسف ملم بخبرات وحرف كثيرة، هو حلاق وحداد وطبيب من طراز خاص، إذا دعت الحاجة. ويميز الدكان أنه عند ملتقى المفارق وأنه يشرف على الحواكير وجانب من بيوت الحارات وعلى المروج والنبع القريب.

وصل صالح الجبيلي فرآه يوسف وابن الأحمد، قبل وصوله لأنهما كان ينتظران قدومه. نهض يوسف مسرعاً على غير عادته ورحب بجاره ومثله فعل ابن الأحمد:

. أهلاً بصالح.

. عليكما السلام وطيب الكلام يا سادة يا كرام يا أبناء الكرام.

ظل صالح محني القامة، رغم فصاحته، وابن الأحمد حاول أن يضحك أو يبتسم فلم يقدر لأن ابتسامته المرجوه، اصطدمت بأكداس التعاسات، فضاعت، كما تضيع دائماً شحاطة زهوره بين أغراض زوجها ابن الأحمد، التي يدفع بها في الكيس الأبيض الكبير، ثم لا يعرف كيف يحددها ويوزعها إلا بعد أن يخرج كل ما في الكيس.

كاد صالح يصطدم بجرة الدكان المستندة إلى جدار الدكان الخارجي. قال له ابن الأحمد:

. هل ظننت أن الجرة شجرة دلب مليئة بالطيور؟

رد صالح:

ـ أنت تعرف علاقتي مع والدك يا ابن الأحمد ام أن غضب الدنيا عليك أفقدك وعيك ومعرفتك؟

. أعرف، نعم أعرف أنك كنت صديقاً لأبي...

ـ وتعرف أنني كنت أذهب وإياه إلى شجرات النهر الكبير بحثاً عن طائر الدلبات الكبير.

قطع يوسف حديث ابن الأحمد وصالح. وقطع الحديث هين على يوسف وكأنه يقطع قضيب القصدير، ليلحم لأخت صالح غطاء القنديل، أو لابن الأحمد

www.alkottob.com

قائمة البابور، التي لا تكاد تهدأ حالها لكثرة الاستخدام، وكاد صالح ينسى لماذا جاء إلى الدكان لولا أن أتاه صوت أخته:

. أنسيت يا صالح لماذا ذهبت، أم أن ابن الأحمد ذكرك بأبيه وحياتك معه؟

أراد صالح أن يلتفت إلى حيث وقفت أخته لكن صوت يوسف أوقفه عن فعل ذلك:

. نذهب معك أو تجلس عندنا ونشرب الشاي؟

. سبهه وشياله بانتظارنا لنشرب عندنا على المصطبة، تحت أغصان شجرة التوت. قال ابن الأحمد وقد نهض ما أمكنه النهوض فبانت لعينيه الأشجار والبيوت والمروج:

. مصطبة بيتك شبيهة بمصطبة بيت أبي يوسف.

. لكن أبا يوسف ترك بيته، وأبناؤه هل اقتلعوا الشجرة وهدموا البيت؟

. الشتاء القاسي الذي مر علينا هذا العام جاء مخيفاً وصعباً وهدم البيت قبل أن يهدمه الأولاد.

شارك يوسف:

. بعد ذهاب أم يوسف مع زوجها، خسرت بيضات دجاجاتها.

قال ابن الأحمد:

ـ أنا خفت أول الأمر أن نخسر البيضات لكنني عرفت فيما بعد أن أم يوسف أوكلت أمر دجاجاتها إلى زوجة كريم.

قال يوسف:

. فعلت خيراً، ولكن الذي يخيف في أمر الدجاجات هو ابن آوى (أبو زهرة).

أخذ القلق والعشق يوسف الدكاني أو يوسف بو حمود، وهو يلمح شياله تحمل الكراسي الصغيرة من داخل البيت إلى حيث فرشت الأغصان ظلالها، فوق المصطبة، فخففت من حر الشمس المزعج.. وكيف ينزعج يوسف بو حمود وشياله أمام عينيه وقبالة روحه يخاطبها في صمته ويناجيها؟

نسي ابن الأحمد في زحمة، الأحاديث أن ينادي زوجته زهوة لتحضر في الحال وتحمل الكيس الأبيض.

فكر أن يرفع صوته منادياً لكنه خشي أن يخيف المجاورين ويفزعهم فلا يقدروا بعد ذلك على شرب الشاي والتلذذ بها.

www.alkottob.com

صوت ابن الأحمد قوي وجهوري إلى حد بعيد، حتى إنه حين ينادي يعرف كل من في الحارات أن ابن الأحمد حضر من المدينة، حاملاً كيسه الأبيض وسلته القصبية. والجميع يعرف ماذا يريد ابن الأحمد، حين ينادي.. وهو ينوع في نداءاته بما يلائم الحال الذي هو فيه والأمر الذي يريده:

حين ينادي زهوه، وهي على النبع ينادي بصوت فيه خشونة مختلفة عن الخشونة التي تكون في صوته وهو ينادي هذه الزوجة المعذبة، حين يكون عائداً ينادي من المدينة حاملاً الكيس والسلة القصبية.

ونداؤه وهو في أرضه خشونته مختلفة عنها وهو ينادي من أمام البيت، وصوته حين يصرخ في وجه أولاده وهو قليلاً ما يوفق إليهم، ليصرخ في وجههم، لأنهم يخافون من مواجهته حتى في حالات سروره النادرة ندرة طائر النهر الكبير الذي عاش أبوه والجبيلي يبحثان عنه. حتى في هذه الحالات لا يجرؤون على الاقتراب من أبيهم اقتراباً مطمئناً، إذ كانت أقدامهم دائماً مهيأة للهرب، وجلودهم خائفة من لسع عصاه.

صالح لا ينظر كثيراً إلى الوجوه، لكنه لأول مرة وجد نفسه ينظر نظرات محددة إلى يوسف وابن الأحمد، وكأن رغبة كانت غافية، تجلت في نفسه.

أراد معرفة جاريه وأراد مقارنتهما بوالديهما، خاصة مقارنة ابن الأحمد بأبيه:

تراءت صورة أحمد السعيد والد ابن الأحمد، تراءت له قامته الناحلة الطويلة وملامحه المعذبة... لكنه كان لا يهاب الحياة... سريرته ليست قاحلة كسريرة ولده... سريرته كانت خصبة بالنبوءات، ورأسه زاهية بالخيالات الشجاعة...

قال صالح في نفسه:

"ليس كأحمد السعيد أحد، في سريرته وحياته، بنى كوخه في الأرض العالية وبنى قريباً من الكوخ البيت الترابي المشهور، اختار مكاناً لائقاً للبيت والكوخ، واختار حياة رضية، ثراؤها يأتي من سريرته الخصبة بالنبوءات والحب".

شياله تجاوزت الثلاثين، وازدادت عذوبة روحها وكياستها وأنوثتها نضجت... فأشعلت في يوسف بو حمود نيران لهفة واشتياق، لا يعرف كيف يطفئها، أو يتفادى أذاها على الأقل.

ابن الأحمد بقي يزم شفتيه وكأنهما فوجئتا بابتسامة طارئة أو بقبلة من نوع خاص، فأرادتا الاعتذار، والجبيلي بقي يتكلم برغبة عن صديق أيامه وحياته والد ابن الأحمد:

www.alkottob.com

أحمد السعيد هو أول من عرفت من أهالي قرية شجرة التوت. هل تعلم هذا يا ابن الأحمد؟

ينتبه ابن الأحمد ويدع المجال متاحاً لشفتيه أن تعودا من رحلة الصراع الدائم مع أية ابتسامة، تود الظهور، ينتبه ويسأل الجبيلي:

. ومتى عرفت والدي؟

. كان لوالدك صديق عزيز على روحه، في قريتنا ... وصديق والدك قريبي وجاري، وكنت ألتقيه في كل مرة يزوره.

. ومن هو هذا الصديق؟

. هو عم أسعد الشحاذ وأبو زوجة كريم قريبك وجارك.

. هو من ضيعة... ... ...

لم يتابع ابن الأحمد سؤاله لأن شعوراً قاسياً بالمهانة سد عليه حلقه ومنعه من الكلام.

. أنت تريد أن تسأل عن زوج ابنتك التي هربت منه؟

. نعم يا جبيلي.

شعور ابن الأحمد بالمهانة، يشبه عضات كلب مسعور، وقد حاول أن ينسى هذا الشعور لكنه لم يقدر... عاد الجبيلي إلى الحديث، وابن الأحمد عاد إليه شعوره بالتعاسة، أما يوسف الدكاني، فظل منصرفاً بنظراته إلى شياله التي أخذها الحديث مع سبهه.

شياله وسبهه جلستا قريبتين من الجدار، فأسندت كل منهما ظهرها إلى الجدار... والجبيلي وابن الأحمد ويوسف تحلقوا حول الجذع القديم.

عاد الجبيلي يروي سيرة علاقته بوالد ابن الأحمد:

كان أبوك شجاعاً، لا يخاف العدا، ولا يحسب للمسافات حساباً.

يمتطي ظهر حصانه الأسود وينطلق إلى ضيعتنا... فيستقبله عم أسعد بالترحيب وكان يشاركنا جلستنا هذه عبدو الشاعر شقيق زوجة كريم.

سأل ابن الأحمد:

. وأسعد الشحاذ ألم يكن يشارككم جلساتكم.

. أسعد مقامه ليس من مقامنا هو مثلك همه في كيسه.

www.alkottob.com

زمّ ابن الأحمد شفتيه زم الغاضب.

. هل تعتبرني مثل أسعد يا جبيلي، وهل تعتبر كيسي مثل كيسه؟

. أنت خير من أسعد، لكن كيسك يشبه كيسه.

ازداد غضبه ابن الأحمد لأن الجبيلي استمر في موقفه السيئ تجاه كيسه، وقد حاول أن يتذكر صورة أسعد، وهو يحمل كيسه، ويسعى في جهات القرية وحاراتها ودروبها بحثاً عن القمح وغيره، لكن محاولته باءت بالفشل لأن صوت أسعد جاء من جهة الحارة الفوقانية:

ـ أين أنت يا بو حمود: "دكانك مفتوح والقلب مجروح وحبيبي عم يجي، وحبيبي بيروح... وحبيبي يتركني... عم سوح... والقلب مجروح... حبيبي شيال حبيبي عالبال... وراح أرسل مرسال يحكيلو عالروح... والقلب المجروح... دكانك مفتوح... دكانك مفتوح...".

دوّي صوت أسعد في كل مكان من القرية وأخبر من ليس يخبر بحكاية غرام يوسف وشياله ولم يكتف بالأغنية بل ختمها بختام خاص:

"يا بن حمود لا تحزن كثيراً

حبيب الروح رح يبعث جواب"

شياله فهمت كل كلمة قالها أسعد وقد أخذها الخفر حيناً والنظر إلى يوسف حيناً. تنهدات يوسف كانت سهت سهواً يسيراً لولا صوت أسعد الذي فضح ما استتر من أمره وأمر شياله...

هبط أسعد الحجارة المرفوعة إلى جوار الدكان، كدرج بائس، ليس ينفع في تيسير خطوات الآتين إلى الدكان أو أي بيت من بيوت الحارة. بل يعرقل الخطوات ويوقع الأذى بالمسرعين.

أسعد هبط متمهلاً وما نفعهُ في العجلة والإسراع؟ هو وكيسه علامتا فقر وعوز ولن يسرق أحداً منهما سارق، إلا إذا كان جاهلاً حياة أسعد وواقع حاله وحال كيسه.

وهو لا يتعجل في هبوط الحجارة المرفوعة قرب حائط الدكان، لأن الحجارة هذه أهدته يوماً سقطة، أجلسته وقتاً غير قصير لا يقدر على المشي المتوازن. وهو في كل الحالات لا يملك أي رصيد من التوازن.

ثم إن أسعد يفهم جيداً بأن (العجلة من عمل الشيطان، والتأني من عمل

www.alkottob.com

الرحمن...).

ويفهم (بأن السلامة تأتي من التأني والندامة تأتي من العجلة) خاصة إذا كانت السرعة تتعلق بهبوط الحجارة المضطربة بشكل دائم.

وهو يمشي غير متوازن وكيف يتوازن ونسغ حياته البؤس والعوز... جاكيته تكتنز من الوسخ ما يكفي لعشر سترات. وقميصه ليس خيراً من الآنسة جاكيته. وبنطلونه تاهت فيه بقع الزيت الدائمة لأن أسعد في موسم قطف الزيتون وعصره، يستبدل الكيس بـ (تنكة) يسعى بها على المعاصر لعله يوفق إلى ملئها... وحين يدركه الجوع، وهو مدركه على مر الساعات، يبحث عن رغيف... وهذا يحق له...

لأن الجميع يعرفه... يطلب رغيفاً من أي رجل أو امرأة... وحين عثوره على الرغيف ينشغل انشغالاً تاماً بأكل الزيت، فيأكل ما يأكل، وينطف على ثيابه ما ينطف.

الجبيلي وأسعد عاشا أياماً طويلة معاً في ضيعة أبو عبدو الشاعر أو ضيعة النبع. وهذا هو اسمها القديم ثم أضافت لها الأيام اسماً آخر، ضيعة الصديق الصدوق والذي سمّاها باسمها الجديد هو أحمد السعيد والد ابن الأحمد.

جرح ابن الأحمد الذي سببته له كلمات الجبيلي عنه وعن كيسه لم يندمل وقد زاده ألماً حضور أسعد وكيسه.

راقب ابن الأحمد أسعد وكيسه مراقبة دقيقة وخاطب نفسه:

"هل أمشي مثل أسعد؟ وهل حذاؤه المخلع المرقع مثل حذائي؟ حذاؤه من النايلون وحذائي من الجلد... سامحك الله يا جبيلي يا صديق والدي كيف سمحت لنفسك أن تقارب بيني وبين أسعد ثم تابع مخاطبته لنفسه:

وبنطلون أسعد ليس كبنطلوني، وسترته ليست كسترتي... وهو معذب مقهور يسعى إلى البيوت، ليطلب القمح والزيت والخبز والثياب، أما أنا فبيتي في قرية شجرة التوت معروف وبابه الخشبي لا يمكن لأحد أن يفتحه إلا بإذني، أما هو لا بيت له ولا باب يغلقه على أغراضه ومن أين له الأغراض؟

وكيس أسعد ليس يشبه كيسي في شيء... كيسي أغسله كل أسبوع أما كيسه فلا يغسله... أخطأت يا جبيلي".

وصل أسعد إلى المصطبة بعد أن عرج ما يكفي لينبه الناظرين إلى عرجه، أسعد خلق لم تهده الدنيا إلا العرج والعوز واللعاب الذي يرشه على أي قريب من

www.alkottob.com

فمه... ثم يتبع العرج بالسعال العالي ليؤكد مجيئه.

تنبهت سبهه لحضور قريبها أسعد ودعته إلى الجلوس على كرسيها قرب (شياله) فسارع أسعد حالاً إلى الجلوس ليظفر بمشاهدة شياله عن كثب. صفعت رائحته غير المسعدة للنفس والأنفاس، والمؤذية للروح والإحساس، صفعت رائحته أنف شياله صفعاً ليس هيناً.

الجبيلي ويوسف وابن الأحمد ردوا تحية أسعد المصحوبة باللعاب قال أسعد:

. كيف أحوال العباد في البلاد؟

ردّوا عليه:

أهلاً بأسعد..

ثم اتبع يوسف:

. أهلاً بأسعد الذي صوته يرعد.

. أنت الحبيب يا يوسف وأريد منك علبة راحة وعلبة بسكويت.

. لماذا تريد هذا يا أسعد؟

للحبيبة الغالية.

ضحك يوسف ضحكته المعهودة التي لا تكاد تبين حتى تختفي، أما الجبيلي فلم يضحك. حتى الضحك لا يعرف على ملامح الجبيلي بل إن الضحك والأسى في ملامحه لا يعرفان ولا يقدر الناظر إليه أن يميزهما. ملامحه تشبه إلى حد بعيد ملامح جذع سنديانه، شققه توالي الفصول عليه، فلا يعرف أخضر الجذع من يابسه... وكذا أمر ملامح الجبيلي... الفرح متداخل مع الحزن والحب متداخل مع الكره، كوجبة معاصرة لا يعرف أساسها ولا الأطعمة الداخلة فيها...

شياله واجهت بصبر رائحة أسعد الشحاذ المختلطة اختلاطاً فظيعاً، برائحة العرق القديم، المتشبث بجلده إلى حد لا فلات للتعرق من جلد أسعد ولا لجلد أسعد من التعرق... رائحة هذا التعرق ليست وحدها المتمسكة برفقة جلد أسعد، بل تخالطها رائحة التعرق الجديد الذي لا يتوقف جلد أسعد عن إفرازه لكثرة حراكه وسيره.

وهناك رائحة الأوساخ المتراكمة على ثيابه حتى صارت جزءاً من ثيابه ولوناً من ألوانها.. وأسنان أسعد أكثر فظاعة من أية فظاعة أخرى.. فهو يتركها أبداً دون أن يسمح ليد النظافة أن تمتد إليها حتى إن قريبه عبدو الشاعر سأله يوماً:

www.alkottob.com

. لماذا لا تنظف أسنانك يا أسعد، فرائحة فمك مزعجة؟

. أنت لا تعرف الأذى والمرض إلا حين تكثر من اللعب بالأسنان.

أسعد يعتبر النظافة لعباً مؤذياً للأسنان. أرادت شياله أن تهجر كرسيها هرباً من رائحة أسعد لولا أنه أقبل عليها يكلمها هامساً فجاء همسه صراخاً عالياً مفزعاً:

. ألا تذكرين الأغنية التي كتبها لك ابن عمي عبدو الشاعر؟

عبدو الشاعر هو قريبي وقد رجع من سفره.

تذكرت شياله عبدو الشاعر وقت كان يزور أهلها ويغنى لها أغنيات لم تسمعها من سواه...

تذكرت قامته الممتلئة وروحه المشبعه بالحب والغناء... تذكرت عينيه اللتين تضجان بالكلام والشوق...

نظرت إلى يوسف وقريبها الجبيلي وابن الأحمد وكأنها لا تنظر. حتى رائحة أسعد ابتعدت عن أنفاسها ابتعاداً يسيراً... حين تذكرت عبدو الشاعر قالت في سرها:

"حين ينظر عبدو الشاعر لا أحد يعرف أن ينظر مثله، يقول في نظراته كلاماً حنوناً، وحين يغني صوته يطرب الروح وحين يحب ما أجمله وأحلاه... لكنني لم أره منذ سنوات وقد يكون أحب وتزوج". أسعد لم ينتبه إلى شياله ليعرف انطباعها عن قريبه (عبدو الشاعر) لأن كل همه تحول إلى كأس الشاي الكبير التي قدمتها سبهه له ومما زاده انتباهاً أن كأس الشاي جاءت ومعها كعكة محترمة خصت بها سبهه أسعد وحده دون الآخرين.

وقد أقبل على الكعكة والشاي دون أن يتقدم بالشكر لقريبته. أطلق العنان لفمه لكي يعض الكعكة وأهمل كل أمر خارج ذلك، وقد شكت الكعكة من سوء تعامل فمه معها، لكن شكواها لم تسمع لأنها ضاعت هي وشكواها في بطنه الموقر قليلاً جداً جداً.. بطن أسعد مستعد لاحتواء أي طعام أو شراب يمكن الفم أن يتعامل معه.. حتى حذاء ابن الأحمد إذا تمكن يوماً من عضه فبطنه كفيل باحتوائه والعمل على هضمه، وإذا حصل هذا فحذاء ابن الأحمد سيكون فقده صعباً وسيقوم برثائه..

حين أنجز عض الكعكة التفت إلى سبهه فألفاها جالسة إلى جوار شياله فناداها:

www.alkottob.com

. الكعكة لا تكفي لبطن أسعد.

انتبه الجبيلي لكنه لم يوقف حديثه عن أيامه مع أحمد السعيد وصديقه والد زوجة كريم وعبدو الشاعر. أما ابن الأحمد فقد سرق صوت أسعد إصغاءه لأن كيسه مزود ببعض الكعك...

خشي ابن الأحمد أن يلمح أسعد الكعك في الكيس، فيكون الضحية... ازداد ارتباكه ولم يخلصه من أزمته إلا صوت (سبهه):

. ألا تسمعون مثلي أصواتاً عالية، تأتي من قبل شجرة التوت.

سأل الجبيلي:

. أية شجرة التي تذكرينها؟

هناك شجرة واحدة، معروفة ومعهودة يا صالح هي شجرة ابن عم يوسف وابن الأحمد. ألا تذكرها يا يوسف؟

أجاب يوسف:

. كيف لا أذكرها وجذعها إلى الآن يفرع.

ابن الأحمد همّ بالنداء على زوجته لكن الأصوات العالية عادت ثانية...

أسعد لم يشغل باله كثيراً... بالأصوات والضجة، بل الذي استرعى انتباهه هو كيس ابن الأحمد، والأغراض التي فيه. واسترعى انتباهه أكثر كيس الكعك الذي عاينه داخل الكيس الكبير...

أرادت شياله سؤال أسعد عن (عبدو الشاعر) لكنه بقي متوجهاً بنظراته واهتمامه إلى جهة كيس ابن الأحمد، ولعله فكر في أن يبدّل كيسه به، لكن حذر ابن الأحمد وحرصه منعاه من الإقدام على ذلك. عادت الأصوات أكثر صخباً وضجة... وازداد حضور شجرة التوت وصاحبها في ذاكرة يوسف وابن الأحمد وسبهه، التي ربطتها علاقة طيبة بأم يوسف...

الجبيلي انتبه إلى ضرورة تحويل الحديث إلى شجرة التوت وأيامها وأيام صاحبها... وفعل ذلك ببراعة المتحدث الذي يحب أن يستمر بالكلام... انتقل الجبيلي من قصته الطويلة مع أحمد السعيد وعلاقته بضيعة النبع ووالد (عبدو الشاعر) إلى شجرة التوت وأيامها.

www.alkottob.com

***

www.alkottob.com

الفصل الثالث

نظرت زوجة ابن الحمودة بأسف ومرارة إلى ما بقي من بيت أبي يوسف وقالت لزوجة كريم:

ـ ما الذي فعلته الدنيا بأبي يوسف: أولاده أجبروه على هجران بيته وقريته وشجرته، وليتهم اكتفوا بذلك.

قالت زوجة كريم:

. ليته لم يوافقهم رأيهم، ويهجر القرية.

. لم يستطع.

لم تتابعا الحديث لأن صوت ابن الأحمد جاء صاخباً، وهو ينادي ابنه:

. يا قرميد... أسرع إليّ بالشاي والطعام.

عادت زوجة كريم إلى الكلام:

. ابن الأحمد أموره غريبة، ينادي بصوت عالٍ مسموع للغادي والرائح، ويشرح ويفصل، وكأنه جالس في البيت، يتكلم مع زوجته.

. هذا طبع ابن الأحمد، ولا يعرف أن يغيره.

– أذكر والده، كان مختلفاً عنه... هل تذكرينه أنتِ؟

. كيف لا أذكر أحمد السعيد، الأرض التي كان يزرعها أبي، كانت إلى جوار أرضه؟!.

ـ أنا أذكره، كان يزور أبي... وكانت كل ضيعتنا تحتفل بمجيئه وكنّا نحن الأولاد نجلس قريبين منه لنستمع إلى حكاياته وأحاديثه.

. هو يشبه أبا يوسف.

www.alkottob.com

. أنت على حق، إنه يشبه أبا يوسف، ولم يوفق بأولاده مثله مثل أبي يوسف.

. أخطأ أولاد أبي يوسف بهجرهم القرية.

. ولم يكتفوا بذلك، فقطعوا جذع الشجرة التي كانت أقدم أشجارنا وأكبرها.

. واختصموا مع بعضهم بِشأن الأرض التي أمام البيت... من جهة الغرب بانت زوجة يوسف بو حمود، تمشي وئيدة الخطوات، فانصرف الحديث إليها:

قالت زوجة ابن الحمودة:

. هل سمعت أن يوسف بو حمود يحب (شياله) قريبة الجبيلي؟

. سمعت من كريم.. هو لم يخبرني، لكنني سمعته يقول ليوسف:

. عار عليك أن تتزوج غير زوجتك وتهمل أولادك.

لكنني لم أكن أعرف أن المقصود بذلك هو (شياله).

. منذ وقت بعيد لم يزرك أخوك (عبدو الشاعر) لقد اشتقنا لغنائه وحكاياته.

. سافر... لكن أسعد أخبرني أنه عاد من السفر.

تترامى الكروم والغابات والتلال، بين ضيعة النبع وقرية شجرة التوت، والدرب الترابي الواصل بينهما طويل ومتعرج وغير مأهول، لكن أحمد السعيد كان يقطعه ماشياً أو راكباً الحمار الأسود، دون أن يحسب للمسافات حساباً، وقد سمي الدرب فيما بعد باسمه، لكثرة ذهابه وإيابه... هذا ما يعرفه معرفة أكيدة الجبيلي، وابن الأحمد وأبو يوسف وغيرهم، لكن زوجة ابن الحمودة وزوجة يوسف بو حمود لم تعرفا أية تفاصيل عن علاقة أحمد السعيد وأبي يوسف بضيعة النبع...

إلا أن زوجة يوسف صارت تكره ضيعة النبع وتكره اسمها جراء حب زوجها (شياله)، وصارت من حيث لا تدري ولا تريد، تصغي لكل حكاية تتعلق بالجبيلي وسبهه وشياله، وبضيعتهم التي تركوها منذ وقت غير قريب، وقد فكرت يوماً بأن تذهب إلى (سبهه) وتحدثها بحديث حب يوسف لقريبتها، لكنها خافت من غضب زوجها وعقوبته لها بما لا يرضيها... وبما يجعلها تسقط في وحل الندم ولا تنهض منه.

بقيت زوجة ابن الحمودة وزوجة كريم تتناوبان على العمل في الأرض وعلى متابعة الكلام عن حياة وأيام القرية والجيران...

أرض كريم وأرض ابن الحمودة متجاورتان، لا يفصلهما إلا الدرب الذي

www.alkottob.com

يصل بين البيوت. أما أرض يوسف بو حمود فهي تجاور الساقية من الجهة الشمالية...

انحدرت زوجة يوسف عبر الأرض المجاورة، لأرض شجرة التوت، ولم تنتبه إلى حيث وقفت جارتاها تتحدثان، ولو أنها انتبهت، لتمهلت عندهما، وحدثتهما حديث حب زوجها وعذابها أو حديث شجرة التوت وصاحبها.

هاجس صعب، ظل يقلقها ويفزع طمأنينتها، هو حب زوجها لسواها: تحاول أن تبتعد بتفكيرها عن هذه الحكاية، التي خربت عليها هناءتها المحدودة، لكن محاولتها تبوء بالفشل، ويعود إلى رأسها هاجس مفزع، يحاصر أي أمل، أو حلم أو بارق سعادة يشرق في نفسها وحياتها: تكلم وهمها، وهي تمشي أو تجلس أو تعمل: "ما هذه القصة التي ابتليت بها مع زوجي؟ كأن ضياع شجرة التوت، ارتد عليّ بالأذى والتعاسة".

***

بقي جذع شجرة التوت يفرع كل عام، وبقي الطائر الكبير، يقبل على الجذع الفارع، وأبو يوسف، بقي يزور لهوفاً إلى أيامه وحياته، التي عاشها في بيته، قريباً من الشجرة العتيقة، والجيران العتيقين...

بيت ولده في طرف من أطراف المدينة... في قرية ليست كقرية شجرة التوت، وحياتها ليست كحياتها، جفلت روح أبي يوسف أول أمره، وأحس بضيق في أنفاسه: بيت ولده غرفة ونصف غرفة وسرير حديدي، قوائمه تعيسة... صدئه... كعمره... تفصل الغرفة المسمّاة بيتاً... تفصلها عن البيوت الأخرى أرض غير مزروعة، وعن المدينة مسافة مأهولة بالقمامة وأحياناً بصوت الحيوانات وأصحابها المقبلين على (البازار) لبيعها أو لإبدالها.

ولد أبي يوسف لا يهدأ في الغرفة المسمّاة بيتاً، وإن هدأ فهو ينام، لأن عوزه للنوم والعيش الكريم أكثر من عوز ابن الأحمد للظرافة والروح الرياضية.

عمله يتبدل مع تبدل الفصول واختلاف المواسم... في الصيف يعمل في الأرض... يشترك مع أقرباء أبيه، الذين يعيشون في قرية النبع كل الفصول، إلا في فصل الصيف... فهم ينزلون إلى أرضهم القريبة من أرض ولد أبي يوسف...

وقد اقترب الولد من أقرباء أبيه، واشتغل معهم بلهفة، لأن ابنتهم الكبيرة والوحيدة، بادلته القليل من الهمس واللمس، والوقوف تحت الشمس... ومرة أو

www.alkottob.com

مرتين أو أكثر، حاولت أن تغمز لـه إشارة منها إلى حبها لـه... ففوجئت بأنـه لا يعرف أن يغمز... بل يغمض عينيه إغماضاً تاماً، حتى يظن أنـه مصـاب بالرمد، أو أن عينيـه تعشيان، وعنيـاه فـي جميـع الحـالات ليستا مـدعاة للسـرور والبهجـة، وملامـح وجهـه كعينيـه، تخبـئ رصـيداً زائداً عن الحاجـة، من التعاسـة... ملامحـه تشعر الناظر إليه، أنه خارج من موسم بكاء ضخم، أو أنه على موعد مع البكاء المرير... عبوسه كحالة السرور... العبوس والسرور لا يختلفان في أمر. حتى إذا ضحك، فتظنه مصاباً بالزكام ويريد أن يعطس عطساً عنيفاً...

ملامحـه ماركـة غيـر مسـجلة فـي سـجلات الملامـح... لأن التعـب لا يظهـر عليهـا، وكـذلك الانشـراح... وكيـف يـتم ذلـك، وملامحـه شـبيهة بـأرض مغطـاة بالحجارة الصغيرة السوداء؟

وقريبتـه ليسـت خيـراً منـه، إلا حـين تغمـز بعينيهـا، فعين مـن عينيهـا أتاهـا الغمز، منذ ولادتها الميمونة، في دارة أهلها الموقرين، في قرية النبع، وقد وصفها (عبدو الشاعر) جار أهلها وقريبهم:

"إنها حين تنظر إليّ أحس أنها تريد أن تبصق في وجهي وفي وجوه جميع المواطنين، المقبلين على الحياة... فتجعلهم، متى رآوها، يحسون أن وقت إقبالهم على الحياة انتهى، وحان وقت إدبارهم، وعينها اليمنى عوراء أو شبيهة بالعوراء، فهي في حال من الغمز الدائم".

ولد أبي يوسف انشدّ إليها أول أمره مع أهلها، وواظب على العمل معهم في أرضهم، حتى إنّه أقنعهم ببناء غرفة كغرفته، يسمونها بيتاً...

أبو يوسف التقى بأقربائه البعيدين، الذين تربطه بهم آصرة قربى غير متينة، بسبب تعرج الدرب ووحشته، وبسبب الفقر المتكدس في كل منحنى من منحنيات حياتهم، الفاخرة كعطر (أسعد الشحاذ).. عرفهم جيداً وعرف الآباء الذين رحلوا عن هذه الدنيا تاركين إرثاً عجيباً من التعاسات المتنوعة، كتنوع الأوساخ المتراكمة على جلد وثياب أسعد.

وقد انتبه إلى إقبال ولده على بنتهم المزدهرة كفصاحة وحياة صالح الجبيلي. برّر أبو يوسف لولده المجتهد في مجالات الحياة، أن يقع في هواها، لأنه، كوالده لم يجد من يقع في هواها، إلا ها أو من هي؟ أتعس منها.

تذكر أبو يوسف، وهو يعاين قريبته العوراء، التي هيئ لولده أن يقع في هواها.. تذكر كيف وقع في هوى السيدة الشفافة... أم يوسف، وعادت به الذاكرة

www.alkottob.com

إلـى الأيـام البعيـدة، فلعـن حياتـه غيـر السـعيدة، لأن دروبـه صـارت عـن شـجرته بعيدة، وقال في نفسه:

"أم يوسف يوم طلبتها من أهلها، قبل والدها طلبي على الفور... وأهداها بضع دجاجات، وحدوة جديدة أحضرها لها من المدينة. واحتفلت أم يوسف بالحدوة الجديدة، أكثر من احتفالها بحبي لها... حدوة محترمة . بنظر أم يوسف . أكثر من أي شـيء آخـر... قـد يكـون والـدها وفـق إلـى اختيارهـا مصـادفة، أو أن صـانع الأحذية، لم يصنع إلا هذا النوع... وقد أمعنت أم يوسف بوصف حدوتها وبتعديد مزاياها النادرة:

"حدوة مصنوعة من جلد متين، وشكلها غير شكل، وتريح القدم إراحة تامة، وهي لا تصدر أية رائحة مهما لبسها الإنسان".

هذا ما ظلت تقوله أم يوسف عن حدوتها، في كل مرة تلتقي بها أبا يوسف، وقد قلت ملاقاتها بأبي يوسف بعد أن تمت الموافقة عليه زوجاً.

ظلت تحكي عن مزايا الحدوة، رغم أنها لم تلبسها إلا وقت جربتها ثم خبأتها في الصندوق الذي قدم لها من أحد أقربائها أو من أبيها...

أبو يوسف وأم يوسف اجتمعا بأقربائهما، في بيت ولدهما المصان صيانة كاملة من قبل الشقاء لا أكثر ولا أقل...

اجتمعت العائلتان، في بيت ولد أبي يوسف، الذي دعا أهل حبيبته، المكتشفة حديثاً وأقام على شرف قدومهم المبارك إلى بيته، لأول مرة، تصحبهم بنتهم الدلوعة، المحبوبة... الغالية على قلبه... واحر قلبه وكل قلب يصار به إليها أو إلى حبها... أقام على شرف قدومهم غداء فريداً من نوعه بنظر أم يوسف:

ذبح لهم دجاجة كبيرة، وطبخ لهم البطاطا، والقمحية، وأحضر اللبن.. وشرحت أم يوسف بإسهاب وإفاضة واقع حال الغداء: "ابننا (خبصها) اليوم يا أبا يوسف، شوى الدجاجة وطبخ البطاطا والقمحية وأحضر اللبن. واشترى لنفسه حذاء وثياباً جديدة... وصرف كل ما لديه من أجل هذه الحبيبة العجيبة.

سأل أبو يوسف:

. لماذا عجيبة؟

. لأن عينها تنظر نظرات غير صحيحة...

www.alkottob.com

عرف أبو يوسف أن زوجته من الجهل وقلة الفراسة بمكان، جعلها، كولدها، لا تعرف أن عين البنت مصابة بالحول الفائض عن الحاجة، أي أن حولها ليس حول الحسن. أو أنها عوراء بشكل من الأشكال. عاد أبو يوسف ووضح لزوجته:

. البنت عينها بها حول يا أم يوسف، أو أنها عوراء.

نادت أم يوسف بصوتها الرعاد، وشدت على ملامحها الشبيهة بالغضب المكوم في حلق قرية عطشى ومعذبة بالبؤس... نادت:

. بها حول أو عوراء؟ ألا يكفينا ما عندنا من هم وفقر، حتى نزوج ابننا واحدة بها حول أو عوراء. ؟؟!!

أتمَّ أبو يوسف الشرح:

. وقد يكون صوتها مثل عينها يا أم يوسف...

أم يوسف جلست محزونة... وقد استبد بها النعاس، فسرقها الغفو، فنامت على الكرسي، وأطلقت العنان لصوت أنفاسها، غير المؤنس، وازداد صوت أنفاسها علواً واضطراباً، وصارت تتكلم وهي نائمة، كلمات غاضبة، فهم منها أبو يوسف، أن الدجاجات التي تركتها برعاية زوجة كريم، أصابها الأذى، من (ابن آوى).

ضحك أبو يوسف ضحكته الهانئة الودودة، التي لا تبين كثيراً، لكنها تبوح بعذوبة خاصة في نفسه، على عكس زوجته، التي لا تبتسم إلا نادراً، وإن ابتسمت فابتسامتها شر من عبوسها...

لعلها لم تتعلم من الدنيا الابتسام، وفي ظنها أن الابتسام أو السعادة الملحوظة عار على الإنسان...

كابوسها استمر، وصوتها صار أبشع وأكثر غضباً، فلم يرد أبو يوسف أن تستمر في عذابها وقلقها... فأهاب بها أن تستيقظ... جفلت والخوف على كل ملمح من ملامحها: على جبينها العريض غير الوضاء بتاتاً، وعلى وجنتيها، اللتين ضاعتا بالتجاعيد القديم منها والحديث، لأنها ورثت، عن أهلها التجاعيد في الوجنتين، وعبوساً وتقطيباً في الجبين.. وهذا الميراث عرفت به عائلة أهل أم يوسف. وولدها استفاد من ميراثها هذا الكثير، فوجهه شبيه وجه أمه، وحاجباه، يا ويح قلب العاشق الصب، كحاجبيها.

عاين أبو يوسف زوجته وهي تصحو من كابوسها، وقد مدت يديها كمن يريد أن يتكئ على جدار الظلام، فأمسك بها من كتفها، خشية أن تمشي، وهي نائمة،

www.alkottob.com

وتسقط أو تصطدم بالحائط أو المنضدة العجيبة، التي استضاف عليها ولدها عائلة حبيبته.

عادة المشي، وهي نائمة، عادة معروفة، ولعلها من العادات التي ورثتها أم يوسف عن أهليها... خاصة إذا كان الكابوس، يتعلق بالدجاجات أو بالحدوة، فإنها تحاول أن تركض، وتمسك بابن آوى أو بالهرّة اللئيمة، التي تأكل البيضات، أو بأسعد الذي، رأته مرة في نومها، يريد سرقة حدوتها، فصرخت به صرختها (الارتوازية) المعهودة، وهمت تمشي وراءه، فسقطت من على العرزال، وتكسرت بعض عظامها، وجبرها يومها (صالح الجبيلي) وأعانه على ذلك أبو يوسف.

صحت أم يوسف أخيراً، وظنت أول صحوها، أنها أمسكت بابن آوى أو بأسعد، فوجدت نفسها أنها ما زالت على الكرسي العالي، وإلى جوارها زوجها، يعب من لفافته العريضة، ويرتشف من فنجانه الشاي...

زمت شفتيها كعادتها، حين تريد الكلام:

. كيف تتركني أتعذب، وأنا نائمة، ولا توقظني؟

ـ لم أنتبه إلى أنك معذبة بالكابوس، إلى حين جاءني صوتك كرسول العذاب، يخبرني عن أمر فاجع.

. صرت تتفلسف آخر العمر يا أبا يوسف؟

وصرت تأتيك الرسل ويخبرونك بالأمر؟

زمّ شفتي أم يوسف استمر، وكابوسها، ظل يعذبها.

قال لها أبو يوسف وقد لمح شفتيها وعبوسها وتقطيبها:

. أنت تشبهين ابن الأحمد شبهاً بعيداً.

. وأنت تشبه من؟

. أنا أشبه شجرة التوت.

لم تجب أم يوسف، لأن حياتها في البيت الترابي قرب الجذع الكبير لشجرة التوت، تحبها كثيراً، وتذيع في روحها القليل من الأمل، لأن روحاً كروحها، يسكنها العذاب، وتسكنها الكوابيس، ليس هيناً على أي بارق أمل أن يسطع فيها...

عاد أبو يوسف إلى الكلام، وقد شاقه أن يتحدث عن بيته والشجرة التي ألفها وأحب معها الحياة والناس:

www.alkottob.com

. لا أدري كيف اندحرت حياتنا الطيبة يا أم يوسف؟

الشتاء الذي مر كان صاعقاً وغاضباً

. مثل ابن الأحمد و...

. ألا تعرف أن تنساه؟

لم يجب على سؤالها، وراح يغني بصوت خفيض:

(ما بين طرفة عين وانتباهتها

يغير الله من حال إلى حال)

لم يدم غناء أبي يوسف، وحديث زوجته، لأن خطوات ولدهما اقتربت...

سألت الأم الولد:

. أنت اليوم زرتها، لماذا لم تسألني؟

. أخبريني هل أعجبتك؟

أبو يوسف ازداد إصغاؤه، ولم يتكلم، ليسمع كلام زوجته المحترمة، بسبب علاقتها الطيبة، مع حدوتها، ودجاجاتها:

. هل ينقصنا فقر، حتى توقعنا هذه الوقعة، وترمي نفسك هذه الرمية،

. هي بنت تربيتها جيدة، وعينها لا تنظر إلا إليّ.

. أنت كوالدك متى أحببت، لا تعرف أن تترك أو تفلت، تعلق مثل العصفور (الغشيم) على أول (دبق).

ضحك أبو يوسف، وكأنه يقول بضحكته لأم يوسف:

. أنت الدبق... واللعنة على هكذا دبق...

لكنها لا تفهم كثيراً بالتلميح... حتى بالتصريح تفهم ببطء. قال الولد:

. هي قريبتنا، والدها ووالدتها، وأخوها موافقون على زواجي منها.

. أمها ترى نفسها فوق كل الناس، وهي أقل الناس.

. هي تحب والدي وتقول عنه: إنه ابن عم والدها، وإنه قديم في قرية شجرة التوت، وتقول إن القرية سميت باسم شجرته.

. أنت وأبوك الكلمة تأخذكما إلى آخر الدنيا وتعيدكما.

أنجز أبو يوسف لفافة التبغ العريضة... وأشعلها وعبّ منها نفساً عميقاً، ثم نفثه ثانية، وانتبه إلى زوجته وابنه، وهما يتحاوران بشأن القريبة، التي اجتمع بها

www.alkottob.com

الولد، وأحبها، وهي أحبته، ولعلهما لم يحب كل منهما الآخر، بل وجد كل منهما قبولاً عند الآخر، فاستجابا لهذا القبول، وسمياه حباً، لأنهما لم يعيشا، من قبل الحب، ولم يعرفا فن الاشتياق...

والحقيقة الأصعب، في هذا الحب الطارئ، أن الواحد منهما لن يجد أفضل من الآخر... يصح عليهما المثل (الطيور على أشكالها تقع) أو (جحا أتعس من أخيه).

لكن أم يوسف، كما وصفها، أبو يوسف سيئ طبعها، لا يمكنها أن تفرح، أو أن ترضى... ولعلها لم توفق يوماً إلى أن تذوق السعادة، ولعل حالة البؤس والتقطيب الملازمة لحاجبيها ووجهها، هي في أعماقها كصخرة، من صخور التلال الفاصلة بين قرية شجرة التوت وقرية النبع.

وزاد من حدة موقف أم يوسف تجاه حب ابنها، إضافة إلى الخلل الشامل، الذي يشمل حبيبته، إضافة إلى الخلل هذا، هناك خلل آخر، هو أن أمها ترى نفسها أهم من أم يوسف، وهذا ما ينغص عليها.

***

بقيت سمر رغم زواجها، وهربها، من زوجها، نضرة النفس، وبهية، وسلمان لم يقدر، على نسيانها، والسيطرة على هواجسه ومشاعره تجاهها... استبد بروحه حب سمر، فصارت ملء حياته، وشغل أحلامه وتفكيره...

رآها يوم تزوجت، رآها في حلمه، تركض في جهة من جهات القرية البعيدة، القريبة من الغابات، ورأى والدها يركض وراءها غاضباً... ورأى أختها رباباً تركض وتبكي...

حاول في اليوم التالي أن يذهب إلى بيت ابن الأحمد، بحجة أنه يريد الجلوس إلى قرميد، لكن محاولته أفشلها خوفه من ابن الأحمد، الذي رآه، من بعيد، وهو يقتلع الأشواك الكبيرة المحيطة بالشجرات.

همهمات ابن الأحمد، وهو يعمل في أرضه المجاورة لأرض ابن الصالح وكريم تنبئ عن مكان وجوده، قبل مشاهدته.

هو لا يعرف كيف يتنهد أو يهمهم أو يتنفس أو يتكلم إلا بصوتٍ عالٍ، علواً

www.alkottob.com

مزعجاً ومخيفاً أحياناً... أدرك الخوف سلمان، قبل أن يصل إلى الباب الخشبي الذي صنعه ابن الأحمد بعناية... الباب يتوسط السياج، المرفوع حول الأرض والأشجار... الباب والسياج يدعوان إلى الضحك، وكأن ابن الأحمد رفع السياج وصنع الباب، لا ليرد أحداً عن أشجاره، بل ليزين تخوم أرضه. السياج عيدان متداخلة، مربوطة بعضها ببعض... والباب كالسياج، لكن عيدان الباب أكثر متانة... وقفل الباب قفل غير عادي: عود متين، يسحب، فيصبح الباب حراً، يعاد فيصبح الباب مقيداً...

سلمان يعرف سياج الأرض والباب معرفة أكيدة، ويعرف كيف يفتح، وكيف يغلق، لكنه لم يجرؤ على فتحه، خوف أن يصرخ في وجهه ابن الأحمد... عاد سلمان، خائفاً، خائباً، يجتر حلمه الذي رأى فيه سمر تركض، ووالدها يركض وراءها، لم يرى سلمان وهو عائد إلا زوجة ابن الحمودة، فتمنى على نفسه، أن يقف عندها ويسألها عن سمر. وعاين شجرة التوت، فلمح أم يوسف، ولم يوفق بنظراته إلى أبي يوسف... ولو أنه رآه لأقبل عليه، وسأله عن سمر وواقع حالها وحياتها...

وفي المساء علَم من حيث لا يريد أو لا يحب.. بزواجها. علَم من أم يوسف، كما علمت القرية بأكملها.

مرت على الجيران جميعاً، تخبرهم: "سمر تزوجت، في قرية النبع، ولد (قحموص).. هذا ما قاله أسعد.. وقال إنَّ حياة عائلة (قحموص) وولده حياة بائسة، وإن سمراً كارهة هذا الزواج".

وصدقت نبوءة الأيام وشجرة التوت، وهربت سمر من زوجها، وعادت معها قصة الزواج والهرب ووالدها.. عادت تعذبها، وتؤلم روح أمها وتنغص عليها حياتها مع والدها. سلمان وحده، من بين الجيران الكثيرين، لم ينظر إلى سمر نظرة مؤذية.. بقيت حبيبة وحلماً لا يبرح رأسه وحياته.. بقي يراها وهو مشوق إليها، ويبحث عنها، تحدوه لهفة العاشق، البكر: تعثر في المدرسة، والدروس، وفشل في متابعة الرحلة مع الكتب، والنجاح، أما حبه لسمر فقد نجح نجاحاً أكيداً في امتلاك كل نفسه وآماله..

بعد أيام من خصومة ولدي أبي يوسف حول ما بقي من البيت الترابي والأرض المحيطة به، قصد سلمان بيت ابن الأحمد، بغية معاينة سمر.. روعه أنه لم يرَ شجرة التوت، والبيت.. وملأه الأسف بصوت يخلو من العذوبة.. أحسه مزيجاً من صرخات ابن الأحمد المدوية، في وجه زوجته وأولاده، وصوت ابن آوى

www.alkottob.com

(أبو زهرة). ظل يمشي إلى حيث الدرب المؤدي إلى بيت ابن الأحمد، وظل صوت الأسف يعذب باله، وظل من حيث يريد أو لا يريد، ينظر إلى بيت أبي يوسف والجذع المتبقي والأرض القريبة المسيجة بالقليل من العيدان. لمحته سمر من بعيد، لكنها غابت في جهة من جهات الكرم القريب من البيت، ولم ترد أن يلمحها، ويأتي إليها ليحدثها:

رغم أنها تشعر بالمودة والمحبة تجاهه، لكن زواجها غير الموقف، صار كالجدار بينها وبينه، وهي لا تحاول أن تتجاوزه خوف أن تسقط..

***

-(عبدو الشاعر) يزور أخته يا جبيلي.

-من أخبرك يا يوسف؟

-أخبرتني رباب بنت ابن الأحمد، أرسلها والدها، لتشتري البيض، فلم تجد عند زوجة كريم، فجاءت إلى الدكان.

-ابن الأحمد طبعه عجيب يا يوسف.

-كل حياته غرائب وعجائب يا جبيلي.

-هو لا يشبه والده (أحمد السعيد) إلا في حبه للطعام، أما الأمور الأخرى فهو مختلف فيها عن أبيه يا يوسف، تصور ما يفعله بأولاده:

شردهم واحداً بعد واحد.. ولده الكبير هجر البيت، وإلى اليوم لم يرجع.. جوهرة تزوجت من رجل كبير بالسن، حتى يمكنها أن تعيش بعيداً عن أبيها.. وسمر . كما سمعت . تزوجت ولد (قحموص) وهربت منه..

قاطعه يوسف:

-أما رباب فلن تتزوج إلا النحس، وطول الشقاء عند والدها، فهي ليست جميلة.

-رباب تشبه أم يوسف.

-وولده قرميد يعرج النهار بطوله وراء والده، وهو يقتلع الأشواك من الأرض.

-أذكر . يا يوسف . أحمد السعيد، كان أقوى من الأيام السوداء..

www.alkottob.com

يعمل النهار بطوله، في أرضه، وفي الليل يسهر في بيته، يقرأ ويكتب، أو يذهب لزيارة قريبي والد (عبدو الشاعر) في (قرية النبع).

شياله أصغت إلى حديث الجبيلي ويوسف، وهما جالسان في الدكان، واسترعى انتباهها اسم (عبدو الشاعر) وقارنت بينه وبين يوسف، من حيث لا تريد، قالت في نفسها:

"يوسف يحبني، لكنه لا يعرف كتابة الأشعار، ولا يغني الأغاني، أما (عبدو الشاعر) فإنه يكتب لي الأشعار، .. أسعد (المهبول) يحفظ الأغنية التي غناها لي، وقت أحبني، قبل أن نترك قرية النبع".

يوسف لا يعرف أن عبدو الشاعر أحب شياله، قبل سفرها وسفره من القرية، ولو أنه علم بأمر هذا الحب، لكانت نظرته إلى (عبدو) تغيرت، ولكان ارتياحه له استبدل بالغيرة والشعور بالكراهية.. لم يدم حديث الجبيلي ويوسف، وتوقف خيال شياله عن المشابهة والمقارنة لأن صوت أبي يوسف جاء حنوناً قوياً:

–أين أنت يا جبيلي؟

سمعت شياله النداء.. و(سبهه) التي كانت في (الحواكير)، تبحث عن بيضات الدجاجات التائهة، سمعت النداء.. ولولا أن رأت الجبيلي ويوسف همّا بالترحيب بأبي يوسف، لكانت بادرت بالترحيب به من بعيد.

قالت (سبهه) لنفسها، وهي تعاين أبا يوسف يمشي متمهلاً وينظر إلى الجهات، كمن يبحث عن غيوم ماطرة، لتسقي كروماً عطشت، أو ينتظر أمراً، لعله يوفق إليه أو إلى أخبار عنه، قالت (سبهه):

"هذا هو صاحب الشجرة العتيقة، كما سمّاه أحمد السعيد، يمشي على مهل، ويرفع رأسه بين الحين والحين لينظر، أو ليؤدي التحية لأحد الجيران.. هو يمشي ورأسه مطرق، وكأنه خائف من حفر الدرب أو من الأفاعي، تجيء من التخوم الخافية عنه.. وكيف لا يخاف من الحفر والأفاعي، وقد ذاق مرّ الحياة كثيراً، حتى ذاق حلوها قليلاً؟ لكن ولديه المتزوجين أساءا إلى حياته بقطع الشجرة، وإهمال البيت ومحاولة هدمه هدماً تاماً، وأساءا إلى كل جار وكل بيت".

الجبيلي أبى على نفسه أن يعانق صديقه العتيق إلا على المصطبة، قرب جذع الشجرة وظلالها، التي أمام بيته، ويوسف رحب بكل مشاعره، واستحضر كل لياقاته الترحيبية، القليلة والبائسة، ليشعر أبا يوسف، بأنه مسرور للقائه، وأنه كبقية الجيران، يحس بالأسف لتركه قرية شجرة التوت.. لكنه رغم كل ترحيبه، لم يرغب

www.alkottob.com

بجلوسه في الدكان، لأنه، بذلك يفوت عليه فرصة مشاهدة شياله.

على المصطبة بدأ الجبيلي الاحتفاء اللائق . بنظره . بأبي يوسف: صافحه بكلتا يديه، فتذكر أبو يوسف، على الفور، أسعد، وطريقته بالمصافحة.

بعد المصافحة الشديدة، كمظهر أول من مظاهر الاحتفاء، بدأ الجبيلي رحلة العناق مع صديقه العتيق. وعناقه (أشد وطأة على الوجه من وقع الحسام المهند) هو كالعض أو كالضرب.. ويطول عناق الجبيلي فتطول معاناة المبتلي بعناقه، وترحيبه.. أبو يوسف لم يستطع رد طوفان عضات أو قبلات الجبيلي، فاستسلم مغلوباً على أمره حتى انتهت رحلة الاحتفاء القاسية، والشائكة كأرض ابن الأحمد.

شياله راقها رؤية العناق العنيف، وراقها أكثر أن تقرأ ملامح أبي يوسف، الذي سمعت عنه الكثير، ولم تره إلا سريعاً.

ملامح أبي يوسف تسعد الناظر إليه، وتشيع فيه حالة من الطمأنينة.. وهي بارعة في الخلاص من اليأس والتعاسة.. صوته حنون، يخلص السمع من ضجة الصراخ الذي لا نفع منه، بل أذاه كبير. هذا ما قالته شياله لنفسها وهي تعاين أبا يوسف، وهو يجلس على الكرسي الصغير، ويسند ظهره إلى الجذع.. يوسف لحق بهما، وقد بان على شعره الماء، فعرفت شياله أن يوسفاً، لا يدع للفوضى أن تؤذي هندامه وأناقته، أمامها.. فهو حين يعرف أنه قد يراها، يحلق ذقنه حلاقة متأنية، ويسرح شعره باهتمام، ويرش القليل من العطر على وجهه وثيابه.. لا يفصل الدكان عن بيت الجبيلي إلا حفاف الدرب. خطوات قليلة يمشيها يوسف فيصل إلى بيت الحبيبة. الجبيلي أقبل على الباب المفتوح، فبانت له (شياله) تسرح شعرها وتهتمّ بملامحها، فنادها بالإشارة، لأنه لو تكلم هامساً، لأيقظ النائمين، في الحارة (الفوقانية) وهو يعرف قوة صوته، وجهله المطبق بالهمس، ولهذا اكتفى بالإشارة، وشياله الأنيقة القارئة الكاتبة، تفهم بالإشارة، كما يصفها قريبها الجبيلي، الذي يعتبر كل من كتب على صفحة بيضاء، كاتباً، وكل من قرأ سطراً في كتاب، قارئاً.. من هذا الباب وصف شياله بالقارئة والكاتبة، لأنها تعرف القراءة وتستطيع الكتابة.. علمها جمالها الأناقة، وعلمتها الأيام وعبدو الشاعر وأغانيه أن تقرأ وتكتب.

فهمت شياله إشارة الجبيلي، وبادرت على الفور إلى إحضار الإبريق الكبير، المعلق في الخشبة المركوزة في الجدار.. وقد تاهت عيناها أول الأمر، ولم توفق إلى هذا الإبريق، الذي يصفه الجبيلي:

www.alkottob.com

"إبريق يليق بالمقام، وغطاؤه مربوط بسلسلة خاصة بربط الأغطية بالأباريق، ولا يجوز أن نقدمه للبعيد والقريب، هذا إبريق الكبار، لأن الكبير للكبير.."

تذكرت شياله وصفه للإبريق، وهي تبحث عنه في الأغراض المعلقة بالخشبة، المخصصة للأغراض والغبار وكل شيء نافع وغير نافع.

خشيت شياله أن تسقط الخشبة، وما عليها من أغراض وأن تتسخ عباءتها بالكثير من الغبار وسواه، من الأوساخ المتراكمة.

أخيراً اهتدت إلى الإبريق، سحبته بهدوء، فلحقه غطاؤه المعلق به، محدثاً صوتاً خفيضاً، جراء اصطدامه، بالأغطية الأخرى، غير المربوطة.

الجرة، لتي في الداخل، ذات شأن وأهمية، كالإبريق، إذ لها غطاء فخاري، ولها وعاء فخاري أيضاً، يستخدم كوسيلة اتصال وحيدة بين خارج وداخل الجرة.. حسب تعليمات الجبيلي التفصيلية، بخصوص الجرة، وميزاتها، وأسلوب التعامل معها.

لم تتجاوز شياله التعليمات. حملت الإناء المربوط بـ (يد) الجرة، وملأته، وغسلت به الإبريق لأنها لو غلت الشاي بالإبريق، قبل غسله، لكانت الشاي غبارية، وهذا ما لا تتمناه لواحد كأبي يوسف.. بعد أن ملأت الإبريق ماء سلسبيلاً.. بدأت رحلة البحث عن السكر والشاي.. قدرت شياله أن (سبهه) تضع السكر والشاي في كيسين خاصين، فراحت تبحث عن السكر والشاي على الرف الخشبي ميسور الحال، الذي حمل من الأكياس، ما ثقل وزنه وقلت فائدته..

اجتهدت شياله ما أمكنها الاجتهاد، في البحث. نقلت الكثير من الأكياس وبدلت في أمكنتها، دون جدوى، حتى أعياها البحث، فراودتها فكرة أن تطلب من يوسف إحضار الشاي والسكر من الدكان.. لم تحقق فكرتها، لأن صوت (سبهه) بلغ سمعها، وهي تسأل أبا يوسف عن حياته وزوجته وأولاده، وقد انتقلت سريعاً من أسئلتها المتلاحقة عن أحواله وحياته إلى الحديث عن الدجاجات و(توهانها):

–تتوه عن أماكنها، فتبيض بين العشب، وعند التخوم وفي الحواكير فيسرقها أولاد الحرام.

قال لها أبو يوسف، وقد حضرته صورة زوجته، وهي تبحث عن الدجاجات وبيضاتها، وتشتم السارقين قال:

–لو كانت أم يوسف موجودة، كانت علمتك كيف ترجعين الدجاجة التائهة إلى مكانها..

www.alkottob.com

ختم صوت ابن الأحمد الراعد الحديث الدائر بين سبهه وأبي يوسف، ولعله ختم أحاديث كثيرة:

-أين أنت يا زهوة؟

انتبه أبو يوسف إلى جهة أرض ابن الأحمد القريبة من أرض ابن الصالح، فلمحه وهو مكب على الأرض، يقتلع عشبها، وينادي نداءه الراعد المعهود، في قرية شجرة التوت وكل حاراتها، أعاد السؤال بالقوة نفسها:

-أين أنت يا زهوة؟

ردت زهوة:

-أنا هنا.. الآن انتهيت من الخبز، وسأرسل لك الغداء على الفور، مع رباب.. بلغ الجواب سمع ابن الأحمد، فتوقف عن النداء.. أما ولده قرميد، فبانت قامته المربوعة قليلاً، وهو يعرج صاعداً إلى حيث والده..

أبو يوسف يروق له أن يظلّ يرقب الكروم والتخوم الخضراء، المترامية.. فهي حكايات عمره وروحه.. نامت صرخات ابن الأحمد واستقرت أمنياته، بعد أن أخبرته زوجته، بأنها خبزت، وهيأت له الغداء، وسترسله مع رباب.. شغلت أنفاسه رائحة الطعام المتخيل، قبل أن تهم بحمله بنته.. وخوف واحد بقي يشاغب على رائحة الطعام التي تستحضرها أنفاس ابن الأحمد، متى اقترب موعد الغداء، أو موعد أية وجبة أخرى لها علاقة بالغداء أو بالصباح أو بالعشاء.. لا شيء يسيطر على خيالات ورأس ابن الأحمد كالطعام.. خوف واحد بقي يشاغب على نكهة الطعام القادم، هو خوفه من غباء رباب، وجهلها الكامل بالحياة والآخرة.. فهي قد تسقط في وضح النهار، في حفرة بسيطة من حفر الدرب.. قد تتعثر قدمها بقدمها، فتهوي، ويهوي معها الطعام، وقد تطعم أسعد إذا صادفته أو أي رجل كأسعد.. والمصيبة الأكبر في هكذا رحلة تقوم بها رباب، من البيت إلى الكرم حيث والدها، أنها . أحياناً . تثأر لنفسها من الطعام، خاصة إذا كانت (البطاطا المسلوقة)،

هي الوجبة، فتقبل على الصحن . فتأكل كل البطاطا، ولا تتذكر أن والدها يعاقبها على ذلك عقوبة شديدة، إلا بعد أن تكمل ثأرها..

حمل قرميد الجرة الفخارية الصغيرة، وقدمها لوالده بخشوع، وخشية، من أن تناله لطمة طائشة من كف أبيه..

تناول ابن الأحمد الجرة، وقبل أن يضعها على فمه الواسع المحترم، سأل

www.alkottob.com

ولده:

–هل تكون ملأت الجرة من الساقية، بدل أن تملأها من النبع؟

أجاب الولد، دون أن يعرج شرقاً أو غرباً أو جنوباً أو شمالاً:

–ملأتها من النبع، وكانت زوجة ابن الصالح هناك، ورأتني.

انشغل ابن الأحمد عن الحديث مع ولده، بشرب الماء من الجرة، وقد أحس بعذوبة الماء، فراقه أن يشرب أكثر وأكثر.. بعد أن ودع فمه فم الجرة، نظر بعينيه، نظرات محددة إلى جهة البيت، فلمح رباب تخرج من باب السياج، فازداد خوفه وازدادت شهيته.

أبو يوسف لم يبعده صوت (الجبيلي) عن الكروم وأيامها، وعن قرية شجرة التوت وحياتها وأهلها: بيته المجاور لبيت عمه إسماعيل، وبيت والد كريم وبيت حمودة الصغير.. بعدها بيوت عائلة أحمد السعيد.

تنتشر البيوت متقاربة، لا تفصل بينها إلا الدروب الضيقة، والأحفة، والتخوم.

(الحواكير) ليست بعيدة عن البيوت، تحددها تخوم معلومة، أو أشجار قديمة، أو حجارة مرتفعة بشكل متناسق تناسقاً غير دائم.. وأحياناً تتحدد الحواكير والكروم الصغيرة بأسيجة من عيدان، كما فعل ابن الأحمد.

الحكايات تبدأ في جميع البيوت، أو تبدأ في بيت من البيوت، ثم تحلق في أُفق البيوت والحارات، كما تحلق الحمائم من الشرفات والأعشاش، التي تجاور العتبات، فتصير كرسولات البيوت، تحمل الكلام والأحاديث الساخنة سخونة شاي (سبهه وأم يوسف) وتسعى بها إلى كل الجهات.

أخذه خياله إلى أيام الحارات القديمة، ولم يرجعه من شروده إلا صوت الفناجين، التي حملتها (سبهه) مع الإبريق.. وقد أكد صوت الفناجين صوت (سبهه) الداعي إلى شرب الشاي، والمرحب بقدوم أبي يوسف:

–قدومك مبارك علينا..

–ضحك أبو يوسف، وقال:

–وقدوم يوسف بو حمود ليس مباركاً؟

–هو جارنا القريب، لا يغيب عنا إلا وقت يقصد المدينة، لإحضار اللوازم والأغراض، المطلوبة للدكان.. (شياله) خرجت خلف (سبهه) ومدت يدها برفق،

www.alkottob.com

فسلمت على أبي يوسف.. فأشعرته بمودتها.. فكأنها، بتحيتها أذهبت عنه أذى تحية (الجبيلي).. وقد عبر عن ارتياحه:

-تحية (شياله) كالظل، أما تحية الجبيلي فهي كالغضب، لا يعرف واحد مثلي أن يهرب منه.. فرحت شياله للإطراء الناعم، كنعومة أناملها، الذي أطراه على تحيتها أبو يوسف، أما الجبيلي، فاغتاظ غيظاً، أزعجه، ثم هجم على الغيظ بابتسامة، هي أشبه ما تكون بالبكاء أو بالاستعداد للسعال العنيف والعالي، علو رقبة حذائه، البائس.. والمقبل على الخراب، إقبالاً شجاعاً.

يوسف بو حمود، امتزج شعوره بالسعادة لسماعه الاطرء، على حبيبة روحه (شياله) امتزج بالغيرة عليها، فأحس بمطر خفيف، يداعب عطشه، وظمأ أنفاسه، ثم ينحبس المطر.. وأحس بجرح مؤلم يعذب صدره، ولا يستطيع الخلاص أو الهرب منه، فيستعذب الألم مرغماً وراغباً، في الوقت ذاته، وفي الشعور نفسه، وفي الالتفاته اللهوفة، التي يلتفتها بكامل مشاعره وإحساسه، إلى جهتها..

عباءة (شياله) زادتها أناقة، واسترسال شعرها على كتفيها، وظهرها، عنوان واضح لبهاء الأنثى وملاحتها.. وعيناها الناعستان حسناً، أيقظتا في الحاضرين نظرات، كانت غافية في الأعماق والذاكرة.. أبو يوسف لم ينظر . عبر حياته . نظرات عاشقة، أو مفتتنة، ووجد نفسه ينظر بإسهاب إلى شياله، المليحة التي أعطتها الأيام أناقة وملاحة، ولم ينقص زواجها غير الموفق من حسنها.. الكروم تسرق نظراته حيناً، فيعاين ابن الأحمد في أرضه العالية، وولده الأعرج، وهو يسعى عرجاً وراء والده.. وبيته المتبقي، رغم أنه لا يبين، ظل ينظر إلى جهته لهوفاً.. فيطالعه بيت يوسف وأرضه، وبيت كريم وطرف من بيوت الحارة العتيقة المتبقية.. أما بيته فلا يبين، تخفيه الأشجار الكبيرة المجاورة لأرض كريم وابن الحمودة..

لا يرجع أبو يوسف بنظراته إلا ليعاين حسن (شياله) وحكايات العمر الشقي على وجه (الجبيلي) العاطل عن الزواج دائماً، لأسباب لا تجهلها حارات قرية شجرة التوت، وقرية النبع.

طعنات العمر بيّنة آثارها على وجهه.

عاد صوت الجبيلي:

-هل تذكر يا أبا يوسف أيام قراءتنا عند خطيب الحارات (أحمد السعيد) كان يجمعنا تحت شجرة المروج.. ويعلمنا الفصاحة؟

www.alkottob.com

–أنت يا جبيلي لا تنسى أمراً من الأمور.

–وكانت شجرة التوتة الكبيرة، في مكانها، لكنك لم تكن – بعد – تزوجت الأميرة أم يوسف.. ألا يتكلم صالح بالصراحة والفصاحة؟

ضحك الجميع إلا الجبيلي، فبقيت همة الابتسام خائرة لديه.. ومرت زوبعة الضحك، دون أن يضحك.. عقّب أبو يوسف:

–أنت لم توفق إلى أميرة مثل أم يوسف، في هذه الدنيا، لعلك في الآخرة توفق إلى أميرة الأميرات، ولعلك تذكر جارك وصديقك أبا يوسف وأميرته السمراء.

الجبيلي استبشر خيراً، بأنه قد يوفق إلى أميرة ذات طول وقد.. لكنه تذكر أم يوسف وطبعها الصعب، وملامحها الداكنة كزاوية داخلية، في بيت بعيدة عتبته عن صدره وزواياه، فخاطب نفسه:

"إذا كنت سأوفق إلى امرأة كأم يوسف، الأفضل لي أن أبقى عاطلاً عن الزواج وألا أُوفق".

يوسف بو حمود، ترك كرسيه لأن بعض الجيران، قصدوا الدكان يريدون الشراء، أو إصلاح بعض الأواني أو يريدون الحلاقة.. ولم يعتذر أملاً منه بالرجوع ثانية إلى المصطبة..

أبو يوسف راقه حديث الجبيلي عن أيام القراءة، فتمنى أن يرجع إليها:

–هل نسيت يا جبيلي، القصائد، التي علمنا إياها أحمد السعيد؟

–أذكر: "جاني البرغوط جنيبي

مزق لي كل تيبي

جاني هوّي وخياتو

وولاد عمو وخالتو..

قصيتن لصوفاتو

وكم فرشي شديت"

–البراغيط كانت لعنة علينا، هي والقمل، وقد قلت اليوم

–مد الجبيلي يده إلى رأسه، وراح ينفش شعره، ويحك جلدة رأسه..

قال له أبو يوسف:

–مالك تحك رأسك، كأن (البراغيط) لا تنساك من نعمها؟

www.alkottob.com

–تذكرت أيام (البراغيط) السوداء؟

–أحمد السعيد كان فهيماً في دنياه وحياته وعلمنا شعراً، يصف واقع حالنا يا جبيلي..

–علمنا كل الأمور النافعة.. وعلمنا علم الطيور.. كان يقرأ عن الطيور في كتاب كبير، يتحدث عن الصيد وطباع الطير.. وحكمة العيش معها والاعتناء بها وتربيتها..

–هذا الكتاب احتفظ به ابن الأحمد، لكنه لم يتعلم منه معاشرة الطيور، أو تربيتها، أو الاستفادة منها، بل تعلم منه . فقط . كيف ينشر عيدان الدبق، ويصطاد العصافير، ثم يذبحها، ويطبخها ويأكلها وحيداً..

–ابن الأحمد، ليته استفاد من علم أبيه، ومن حياته الطيبة.

شجرات دلب الساقية، العالية تبين للناظر من بعيد، وقد رآها أبو يوسف من على المصطبة، ومثله الجبيلي، الذي رافق أحمد السعيد سنوات عديدة.. رافقه في العمل عنده في أرضه المجاورة للساقية، ورافقه في بحثه عن الطيور، وتعلم منه القراءة والكتابة، وتعلم منه حب شجرات الدلب الكبيرة، التي يعيش فيها طائر الساقية الكبير، وتعلم منه الفصاحة العرجاء كعرج قرميد ولد ابن الأحمد.. الجبيلي يفهم ببطء شديد، كمشية أم يوسف.. ولهذا بقيت فصاحته عرجاء.. من حيث لا يدري، وجد أبو يوسف نفسه يردد مطلع قصيدة كان يعلمهم قراءتها أحمد السعيد:

"الحمد لله ما أبدى الصباح سفور

حمداً مزيداً على عدد الحصى والرمل"

نسيم حنون، لامسَ روح أبي يوسف، والجبيلي.. وشياله وسبهه اللتين بقيتا طوال الجلسة، تتحدثان عن أم يوسف، وعن قرية شجرة التوت، ثم انتقلتا للحديث عن (عبدو الشاعر). إنه نسيم التذكر والأيام، يبوح بأسرار، يختزنها البال، فلا يقدر على إخراجها إلى دائرة الإحساس، إلا هكذا نسيم وهكذا جلسات لها علاقة وثيقة بالأعماق.. صوت أسعد المشاغب . دائماً . والمتعثر.. جاء كصرخة ريح، صفرت فجأة، دون سابق إنذار.

"رسول الحب، شايف، ما يجيني

شواطئ الحب شايف، ما يجيني

رسول الحب سافر بالعباب"

www.alkottob.com

صوته سبقه إلى الحارة العتيقة، عاين أبو يوسف درب البيوت العالية، فظهر له أسعد، وهو يعبر الدرب باتجاه بيت كريم. سمعت شياله غناء أسعد، فعرفت أنه يغني من أغاني (عبدو الشاعر). أسعد لم يكن يعرف أن قريبه (الشاعر) يزور أخته، ولو عرف ذلك، لكان أكثر من الغناء، ولكان قرأ من أشعاره، التي يحفظها حفظاً لا سلامة فيه.. حفظ أسعد للشعر، يشبه كيسه وثيابه ورائحته، التي لا تحمد معاشرتها، من قِبل أي أنف، مهما اشتد بأسه، وعلا شأنه.

كيس أسعد استوقف انتباه أبي يوسف.. واستوقفه أكثر غناؤه الأعرج كفصاحة جاره القديم (الجبيلي).

شياله، من حيث لا تدري، وجدت نفسها تبحث من جديد عن حب كاد يمحي من دفاتر عمرها المهترئة منذ البدء، وكيف لا تكون الدفاتر، مهترئة، والحياة ذاتها عابسة شاحبة الملامح موحشة؟

شياله التي أحبها (عبدو الشاعر) وأحبته حتى صارا حكاية قرية النبع، وقرية شجرة التوت وحاراتها، لكن الدفاتر المهترئة، لا تستطيع إكمال الحكايات الجميلة. تتمزق أوراقها بقدرة الشقاء، والعذابات الملحة، حتى لا تدع لعاشق مجال هوى، ولا تدع لشاعر مجال غناء حنون..

***

تمنت زوجة يوسف أن تترك السطح، وتذهب إلى بيت كريم.. تفلش أسرارها وهمومها أمام زوجة كريم، وتستمع إلى الحكايات وغناء (عبدو الشاعر)، الذي عاد صوته إلى الغناء:

"بين اليوم وبين الأمس
بيصير واحدنا للرمس
يا خوفي عالشمسي
فوقا شمس
وتحتا شمس"

أيقظت هذه الكلمات روح الليل الناعس، وأحيت في نفس أبي يوسف تباشير مودة ومحبة.. وقد راق لسمع الزوجة المعذبة بالوحشة والغيرة، أن تسمع هذا

www.alkottob.com

الكلام الحنون، وراقها أن تسمع صوت أبي يوسف، ينطلق من الشباك القريب، فيزرع وحشتها بالطمأنينة..

قال أبو يوسف لـ (عبدو الشاعر):

سمعت هذه الأغنية كثيراً.. سمعت أسعد قريبك يغنيها.. وسمعته يقول: هذه الأغنية غناها ولد عمنا (عبدو) لحبيبته (شياله).

قال عبدو:

-أسعد يحفظ كل ما أقول وأكتب، لكنه لا يعرف كيف يحفظ.. استاءت لسماعها اسم (شياله)، لكنها من جهة أخرى، استقر بالها، حين سمعت أن (عبدو) يحبها.. قدرت في نفسها أن من يحبها (عبدو الشاعر) وهو الأنيق العارف بأسرار الدنيا، المجرب في الأمور.. لا تستبدله بصاحب الدكان، الذي لا يعرف أن يكتب الأشعار ولا يعرف الأسرار.. ثم إن حاله ليست كحال (عبدو الشاعر).. بيته في قرية النبع قديم وكبير، وحياته ميسورة، أما صاحب الدكان فحاله ليست مستقرة استقراراً واسعاً.. كل حياته في دكانه، يشتري ويبيع، وبالصعوبة يكاد يعيش ويطعم زوجته وعائلته..

ضوء بيت كريم كان أقوى أضواء بيوت الحارة العتيقة.. هذا ما رأته زوجة يوسف بو حمود.. وقد آذاها وعذب نفسها أنها حاولت أن ترى ضوء بيت أبي يوسف، فوجدت الظلام، يسد على عينيها المدى.. فلم ترَ البيت وشجرة التوت والضوء..

ضوء بيت ابن الأحمد، يبدو ضعيفاً، وأصوات أولاده، على غير عادتها، مرتفعة.. فقالت زوجة يوسف:

ابن الأحمد إما أنه قصد بيت كريم هو وزوجته، للسهر ومجالسة (عبدو الشاعر) وأبي يوسف وقد عبّر ابن الأحمد مراراً عن أسفه، لغيابه عن القرية.. وعن حبه لسماع الغناء والأشعار، ومعرفة المخبأ من أمور الدنيا والأسرار.

في رحلاته القريبة، إلى الجيران، يصحب ابن الأحمد زوجته (زهوة) ويمتنع عن الصراخ في وجهها، وقد يبادلها القليل من المودات، التي قد يعثر عليها، وقد لا يعثر.

سمعت الزوجة المعذبة بعشق زوجها لسواها، صوت سمر، وهي تكلم أختها:

-أنت لا يهمك إلا أكل البطاطا وشرب الشاي.. وحين يعود والدك، كيف سنخفي أمر السكر والبطاطا عليه؟!

www.alkottob.com

لم ترد رباب.. واستمر سعيها المشكور، أو غير المشكور، لا أحد يعرف عن أمر سعيها شيئاً.. استمر سعيها وبحثها عن أية بقية من البطاطا المقلية بزيت الزيتون.

رباب تأكل، وسمر يزداد قلقها وخوفها من والدها، الذي قد يثور على الجميع، وينالهم بالضرب المبرح..

قرميد كان في الفسحة الجنوبية المسيجة بالعيدان، وجذوع الأشجار والأغصان، المقبلة على الفسحة والجدار.. سمعت سمر صوت أخيها، فخرجت، تاركة أختها تثأر من البطاطا، بالأكل العجول النهم، الذي يعبر عن موقف رباب المتشدد والسيِّئ تجاه الطعام وخاصة البطاطا، وهو موقف لا يأتي عبر الرفض، بل عبر الإقبال والنهم العجيب..

عرفت سمر أن سلمان ولد يوسف بو حمود وحسان ولد كريم جاءا.. فشعرت بالهناءة والسرور.. وشعرت أن خوفها من أبيها، جراء أكل أختها وشربها الشاي، بعنف وكثافة، قد ابتعد.. رمقت سلمان بحب ولهفة، لكنها عاجلت نظراتها، فأخفت الحب ما أمكنها الإخفاء، وعادت إلى حال من الهدوء والتوازن..

رحبت مثل أخيها بسلمان وحسان، لكنها لم تعرج مثله، وهما يدعوانهما للجلوس على الكراسي التي على المصطبة.. سلمان فضل الجلوس في الفسحة:

–الجلوس هنا قرب أشجار بستان أهل حسان وابن الصالح أفضل من الجلوس على المصطبة.

ردّت سمر وتوجهت بكلماتها إلى سلمان:

–في النهار، نجلس في الفسحة.. فنرى كل بيوت وكروم (حارة الساقية) أما الآن فالظلام يغطي الأشجار وغيرها.

–حين تكونين يذهب الظلام.. أنت يا سمر كضوء بيت أبي يوسف، يخاف منك الظلام.. قرميد لم يفهم كلام سلمان، وبقي منشغلاً بالعرج والبحث عن الكراسي، وحسان ابتعد خطوات يسيرة عنهما، ليفسح لهما المجال.. فهما في حومة الحب، كل منهما يحب الآخر، ويبحث عنه، ويشتاق إليه، لكن جداراً غليظاً ارتفع بينهما، فأفزع فيهما الحب، لكنه لم يقدر على إهدار دمه.. فبقي كشجرة التوت القديمة، يفرع، وتخضر أغصانه..

كراسي ابن الأحمد مثل كيسه وصندوقه، خضعت لعمليات تبديل وترميم، كثيرة.. أساسها القش، لكنه لم يترك القش على حاله، فأضاف إليه، ما تيسر له

www.alkottob.com

من خرق ومزق، بالية على هواها وهواه وهوى زوجته.. بعضها يجمعه من الأرض، وبعضها، يلمه من البيت.. ثم يجمع هذه الخرق في قماشة سمراء أو حمراء أو متسخة أو غير ذلك.. ثم يشبك القماشة مع الخرق، شبكاً جيداً، ويضعها على قش الكرسي.. وحين تصادف عجيزة من كتب عليه أو عليها الجلوس على الكرسي، تصادف العجيزة أولاً، خرق ابن الأحمد، والشريط الناعم الذي شبكها به.. وإذا كانت العجيزة ضخمة ضخامة معتبرة ومسجلة في سجل العجائز الفاخرة والضخمة، لا بد أن تلامسها مسامير ابن الأحمد، التي يستعين بها على تمتين علاقة الخرق بالكراسي.

حال الكراسي معروف لدى حسان وسلمان، ورغم أن الثاني سافر إلى المدينة وبدأ دراسته في الجامعة، فلم ينسَ واقع حال الكرسي.. وبقي حذراً حذراً شديداً، من أن يرخي كامل ثقله، خشية أن تصافح رؤوس المسامير عجيزته، فينط كالملدوغ.. وسلمان الذي وقف مع سمر، وبادلها الكلام الحنون، لأول مرة، منذ هربت من زواجها غير الموفق.. ولعله لم يبادلها هكذا كلاماً، قبل زواجها أيضاً..

وهي أيضاً لم تجرؤ، قبل هذا اللقاء المشفوع برائحة الحب وصوت أبي يوسف وعبدو الشاعر، لم تجرؤ قبل هذا اللقاء، على البوح لسلمان:

–لولا خوفي من عيون الجيران وألسنتهم، كنت سأزوركم..

–تعالي أنت ورباب أو أنت وقرميد أو أنت وأمك..

–إذا ذهبت رباب، لا بد من أن تحضّر لها أمك البطاطا والشاي..

تبسّم سلمان، فبانت أسنانه البيضاء. وأضفت الابتسامة على ملامحه، إشراقاً وألقاً أذاع في سمر شوقاً لا تخفى علاماته.

***

زوجة كريم اعتنت، ما أمكنها بدجاجات أم يوسف.. لكن اعتناءها، لم يصد هجمات (ابن آوى) صداً محكماً:

في الليلة التي سهر فيها أبو يوسف ونام في بيت كريم. هجم (ابن آوى) هجمة لئيمة على دجاجات أم يوسف ودجاجات كريم، لكن صوت (عبدو الشاعر) قد يكون أخافه، فهرب، دون أن ينال من الدجاجات، أو أن هجمته جاءت في وقت خروج ابن الأحمد من بيت كريم، ولا شك أنه سعل سعاله العالي، أو أنه أطلق واحدة من تنهداته الصاخبة صخباً، جديراً بإشاعة الرعب، في روح (ابن

www.alkottob.com

آوى). وقد رأت زوجة كريم في نومها المتقطع حلماً: رأت جذع شجرة التوت يفرع فروعاً وأغصاناً لم ترَ مثلها من قبل، ورأت ما يشبه الطائر الكبير، الذي سمعت أبا يوسف يتكلم عنه..

ورأت (ابن الحسن) يحاول كسر الأغصان وحرق الجذع، وقتل الطائر، ورأت لأول مرة في حلمها وفي يقظتها، ابن الأحمد يحمل عصاه الضخمة، ويهجم بها، على (ابن الحسن) فيهرب من وجهه.. ويبقى الجذع والفروع والأغصان.. ودّعت السهو، من غير رغبة في الصحو.. فراعها أنها لم تجد ابن الأحمد بين الساهرين.

***

-هل سمعت مثلي؟

-عن ماذا؟

-عن زواج ابن الحسن.

قالت زهوة لزوجة ابن الصالح:

ابن الحسن، لم يستفد من معاشرة شجرة التوت، ولم يتعلم من الأيام إلا الإساءة للجيران..

ردت زوجة ابن الصالح:

وهو يسيء لنفسه أيضاً، فها هو تزوج امرأة غريبة ومسنة.. ولا أحد يعرفها أو يعرف عنها شيئاً..

دار هذا الحديث بين زهوة وزوجة ابن الصالح، وهما قريبتان من أرض وبيت ابن الحسن.. وقد شاهدا المرأة الجديدة، وهي تمشي وئيدة الخطوات، باتجاه التخم الفاصل بين أرض ابن الحسن وابن الصالح..

وكأن جرحاً كان مندملاً، عاد إلى النزف والألم.. استيقظ في روح زهوة، وهي تعاين (الغريبة) تسرح في الأرض التي تعبت فيها، وزرعت، لكنها لم تذق طعم ثمارها..

زهوة بقيت واقفة، وعلى كتفها الجرة الفخارية، المملوءة ماء.. وقد أخبرتها زوجة ابن الصالح بأنها قد تتعب من حمل الجرة، ويجب عليها إنزالها:

-انزليها.. وتعالي نجلس.. منذ وقت بعيد لم نلتقِ.

-كانت الشجرة.. تلمنا يا بنت الكرام.

www.alkottob.com

قالت زهوة كلماتها وغصة مَرّة تعذب حلقها ونفسها: تذكرت أرض زوجها التي أخذها ابن الحسن.. وتذكرت شجرة التوت وأيام القرية معها.. تذكرت صوت الحب الذي كان يريح بالها، كلما اقتربت من تخم أرض شجرة التوت..

أمسكت زوجة ابن الصالح الجرة من على كتف زهوة، وأنزلتها.. لعلمها الأكيد أن الوقفة ستطول، وأن الحديث لن يختم بسرعة.. ولرغبتها الملحة في الأخذ والرد مع زهوة.. التي تختلف كلياً عن زوجها (ابن الأحمد).

قارنت زوجة ابن الصالح غير مرة بين زهوة و(ابن الأحمد).. والآن قارنت أكثر، إذ دقّقت النظر إليها.. إلى وجهها الطافح حياة، وعينيها اللتين تبوحان بحزن عميق لا ينتهي.. واستحضرت صورة ابن الأحمد: الملامح الغاضبة، والوجه المشحون بالغيظ كمن يبحث عن عدو آذاه. وأنف ابن الأحمد الكبير المفلطح كمنقار طائر عجيب.

قالت زوجة ابن الصالح لنفسها:

"كيف تسمح زهوة لابن الأحمد أن يقبلها، وأنفه كالمنقار، ووجهه كعصفة ريح شتوية هوجاء؟" وتمنّت لو تسألها هذا السؤال.

ضاعت زهوة في زحام الأسف والشعور بالتعاسة، ونسيت المهمة الموكلة إليها دائماً، وهي إعداد الطعام، الذي يليق بالمقام على حد تعبير زوجها.

ملامح زوجة ابن الحسن، تختزن فظاعات وآثاماً، فلا يبين وجهها: أهو وجه امرأة أو وجه ثعلب أو صورة حافة أصابها الانهدام فصار انهدامها كالفخّ، يسقط فيها الغافل.. زهوة المكبلة بالتعاسات وسوء الطالع، كما قال لها (أحمد السعيد) بعد زواجها من ولده المصون صيانة تامة!! راعتها الوحشة القاطنة في ملامح الزوجة (الغريبة) ولم تقدر على الاستمرار في النظر إليها، خشية أن يزداد خوفها وتزداد آلام نفسها المبرحة.

شعرت زوجة ابن الصالح بحال جارتها، وكيف لا تشعر، وقد آذتها ملامح (الغريبة) الموحشة كما آذت جارتها.. إلا أن رصيد زهوة من الشقاء والمتاعب والكآبة يفوق رصيد زوجة ابن الصالح. منذ تزوجت زهوة من ابن الأحمد لم تبتسم لها الحياة، بل عبست ومثلها عبس ابن الأحمد.

صوته كالنذير. وملامح وجهه كوجه صخرة عذبها المطر، ومرت عليها الريح فأضرت بها، ثم تركتها في عذابها وسوء حالها.

قالت زهوة لجارتها:

www.alkottob.com

-ما هذه الزوجة التي تزوجها ابن الحسن؟!

-ابن الحسن لا يتزوج هكذا امرأة إلا لمصلحة!

-المصلحة..؟!

تساءلت زهوة من خلال كلمتها هذه ومطتها، حتى انقطع صوتها.. فأحست زوجة ابن الصالح برغبة جارتها بالإيضاح والشرح وشغف زهوة بالأخذ والرد..، لأسباب كثيرة، أهمها أن ابن الأحمد لا يشرح، ولا يدخل في متاهة الأخذ والرد.. بل يوجز، وإيجازه صاعق وصارخ ومخيف.. يقول لزهوة، إذا أراد أن يخبرها بأمر من الأمور، أو أن يطلب منها أي طلب، يتعلق بالبيت أو الطعام أو الجيران:

زهوة اعملي كذا.. أو فلان لا يحب.. أو هذه الأكلة ليست تليق بالمقام..

يقول جمله المصحوبة بالسخط، في جميع الحالات.. ولعل الحالات عنده لا تتميز: السخط كالسعادة كالرضى.. صوته مؤذٍ للسمع لا حنان فيه.. ومن أين له بالحنان وروحه عذبتها الأيام عذاباً لا نهاية له..

أحست زوجة ابن الصالح بما يدور في نفس زهوة فأرادت أن تشاركها في إحساسيها:

-زوجة ابن الحسن، لا شك، في أن وراءها حكاية، وإلا لما تزوجها.

-أنت تعرفين أكثر مني..

أرادت زهوة أن تبقى مع جارتها، إلا أن صوت ابن الأحمد جاء ساخطاً منذراً.

-أنت إلى الآن عند زوجة ابن الصالح، وأنا هنا جائع أنتظر طعامك يا بنت الأسود.. الحنطي.. يا بنت حمدان المحجوب؟

كل من في الحارة العتيقة والحارة التحتانية، سمع نداء ابن الأحمد وفهم كلماته فهماً، لا حاجة معه إلى الإيضاح. يوسف بو حمود و(الجبيلي) وسبهه وشياله سمعوا صوت ابن الأحمد، وزوجة يوسف بوحمود وزوجة كريم وزوجة ابن الحمودة أيضاً سمعن النداء الجائع، الذي جاء من جهة حارة الساقية..

قالت زوجة يوسف بو حمود:

-ابن الأحمد صوته لا يتعب.

-عقّبت زوجة ابن الحمودة:

-الصوت نعمة وخير.. ابتسمت زوجة يوسف بو حمود ابتسامة ضحلة،

www.alkottob.com

وكأنها تقول لجارتها: لم أسمع أحداً قبلك، يصف صوت ابن الأحمد بأنه نعمة وخير!!

لم ينقطع صوت ابن الأحمد، حتى سمع صوت زهوة وقد لمحها وهي تمشي على عجل وخوف..

أجابت زهوة:

-تأخرت في ملء الجرة بالماء يا ابن الأحمد.. لكنني لن أتأخر في إرسال الطعام لك مع رباب.

في ملاحة زهوة اعتدال.. فلا هي بالطويلة ولا هي بالقصيرة، ولا هي ضخمة الكتفين، رغم شتائم زوجها الدائمة لكتفي والدها.. لكن حياة الشقاء أتعبتها كما قالت في نفسها زوجة ابن الصالح، بعد أن تركتها واتجهت عبر درب الساقية إلى حيث درب المرج والكروم ودرب شجرة التوت وبيت أبي يوسف.. زهوة بقيت ترسم صورة عمرها الأسود، وصارت تمزج، من حيث لا تريد صورة (الغريبة) بصورة عمرها.

الأرض التي أخذها ابن الحسن من زوجها، عاشت زهوة أكثر حياتها فيها.. حتى في أيام والده، كانت تساعد والدها (حمدان المحجوب) في نزع الأشواك من جوار الأشجار، وفي حفر الأرض لزرعها، وفي حمل الماء من نبع الساقية.. وقد أحبها ابن الأحمد، حسب تصريحاته، أحبها أكثر ما أحبها، حين كان يراها تحمل الجرة وتصعد من نبع الساقية إلى حيث والدها (حمدان).

عاتبت زهوة نفسها وصورة والدها تملأ خيالها، أثناء صعودها باتجاه درب شجرة التوت والحارة العتيقة: "كيف رضيت بالزواج من ابن الأحمد، وكيف نصحني والدي بالقبول به؟! ابن الحسن نفسه طلب الزواج مني.. وغيره كثيرون أحبوا أن يقتربوا مني.. أبي هو السبب.. سامحتك الأيام يا أبي يا من سماك أحمد السعيد (حمدان المحجوب) أضاف إلى اسمك صفة المحجوب وأنت حجبت عن نفسك المعرفة وضعفت عندك الدراية، فرميتني شر رمية.."

تابعت خطواتها الكسلى.. وخيالها الكسلان لم تنم مواجعه.. ظلت ترى (الغريبة) وتتخيلها في حالات شتى، وتتخيل معها ابن الحسن الذي اشتهر بالكذب والتصرفات الملغومة والخداع.. مرت بكرم ابن الصبرة، وكان يفلح أرضه، ومعه زوجته فلم تنتبه إليهما.. أخذها انشغالها بخيالاتها وهواجسها، وأبعدها من حيث لا تريد عن رؤية ابن الصبرة وزوجته... ابن الصبرة قامته قصيرة قصراً بيناً، لكنه

www.alkottob.com

يُرى جيداً بالعين المجردة.. وقصره لا يبرر لزهوه عدم رؤيته وتحيته.. وزوجته تشبهه في كثير من الأمور: قامتها ليست أطول من قامته.. وعياناها كعينيه تنظران بعناية وإمعان إلى المارين، وإلى الأرض والأشجار.. وسمعها حاذق كسمعه، يسمعان الأصوات ويعرفانها.. وغضب ابن الصبرة لا يتزامن مع غضب زوجته.. واهتمامه بالدجاجات والبقرات لا يرقى إلى مستوى اهتمامها.. وتعامله مع لفافة التبغ يؤذي اللفافة، ويؤذي شفتيه فهو أكثر وقته يحاول عض اللفافة عضاً مؤذياً.. وإذا لم تكن اللفافة، فقد يكون الهواء أو شفتاه.. أما زوجته فلا تضحك في كل الفصول.. ولعل شفتيها مشغولتان باجترار أحزان قديمة تركت آثارها على ملامحها وعلى عمرها كله..

عجب ابن الصبرة لأمر زهوه: كيف تمر دون أن تلتفت إليهما بتحية ولو عاجلة كعجلة رباب في التهام صحن البطاطا المسلوقة؟!

قال لزوجته بعد أن أوقف عضه للفافة المعذبة:

-كيف تمر زوجة ابن الأحمد، ولا تنظر إلى جهتنا.

-ابن الأحمد من يعاشره لا يعرف شرقه من غربه.. وزهوة كتب عليها معاشرته، وكتب عليها الشقاء معه.

انفرجت أسارير ابن الصبرة، لأنه اعتبر كلمات زوجته عن قسوة معاشرة ابن الأحمد، بمثابة اعتراف منها بأن معاشرته حنونة وغير متعبة..

أحب ابن الصبرة أن يستمر في حديثه مع زوجته عن ابن الأحمد وزهوة:

-هل تكون تأثرت بشتمه لها بصوت عال؟

-إنه لا يشتم ولا يتكلم إلا بصوت عال يا ابن الصبرة.

-لقد أخطأت إذ وقفت عند زوجة ابن الصالح، ونسيت أمر الطعام.

-ابن الأحمد همه الطعام..

آمال يسيرة شغلت زوجة ابن الصبرة عن متابعة الحديث:

هل نسيت أن تملأ جرن الماء المخصص لسقي الدجاجات.. والباب الرئيسي المؤدي إلى الغرفة الكبيرة هل أغلقته، خوف أن تدخل الدجاجات إلى البيت وتترك هداياها المتواضعة (مصعات مختلفة القياسات والأحوال) بعضها كبير وبعضها صغير وبعضها لا شكل له.

فكرت بولدها البكر محمود الذي انصرف عن متابعة الدراسة إلى شؤون

www.alkottob.com

أخرى.. هذه الآمال غير العريضة، شغلت أم محمود عن متابعة الحديث مع زوجها المقبل على الحياة والعمل وفلاحة الأرض القريبة من البيت والساقية أيضاً.

***

الدرب بين قرية ولد أبي يوسف الثاني، وبين قرية شجرة التوت ليس طويلاً، أو متعباً: تحيط به كروم الحارة الغربية، وكروم (حارة السماق) والساقية قريبة منه..

وأبو يوسف يشعر بالألفة والعلاقة الطيبة مع هذا الدرب وهذه الكروم، التي يعرفها جيداً.. يعرف تخومها تخماً تخماً، ويعرف أصحابها، وأشجارها.. يسير عبر هذا الدرب، تؤنسه ذكريات الأيام المريرة التي عاشها مع الكروم، يعمل النهار بطوله وعرضه.. لكن هذه الأيام، وإن كانت قاسية، صارت في عالم التذكر، الذي لا يؤذي كثيراً..

باب بيت ولده الثاني (سعيد) مجاور تماماً للدرب.. يفتح الباب ويخرج فيستقبله الدرب، فإما أن يسعى غرباً إلى بيوت (قرية الرمان) ومنها إلى القرى الأخرى، وإما أن يسعى شرقاً إلى كروم وحارات قريته الباقية..

بعد جدال لا تحمد عقباه ولا بداياته مع أم يوسف خرجا معاً: أبو يوسف، رغم انحناءة ظهره، التي ازدادت وضوحاً بعد تركه بيته والشجرة الكبيرة.. رغم الانحناء، ظل ينظر بحب وحذق ودراية إلى الكروم وتخومها ومن ورائه أم يوسف تشغل يديها، بشكل مستمر، بربط المنديل الأبيض بعض الشيء، أو بشدّه و بتغيير وضعيته، على رأسها.. وشفتاها لا تنقطعان عن الزم والانشداد والارتخاء، وكأنها تمضغ طعاماً شديداً. قالت أم يوسف:

-ألا نفكر بحال ولدنا الكبير وحال زواجه؟؟

دون أن يلتفت إلى الوراء أجاب:

-أمرك أمر عجيب.. وقفت في وجه زواجه من (عهيده) بنت قريبنا وقريب (عبدو الشاعر)..

-أمها لا تعاشر، ترى نفسها فوق الناس، وهي دون الناس.

-أمها مثلك تبقى غاضبة على كل شيء وكارهة لكل شيء، دون أن تعرف السبب.

www.alkottob.com

ثارت ثائرة أم يوسف، وزادت من زم شفتيها، وشدّت منديلها شداً صعباً، وهمت بالرد على زوجها، لكن لعاباً كثيفاً اعترض صوتها، فتأخرت بالإجابة غير الشافية على كلمات زوجها..

أبو يوسف لم يعد إلى الحديث أملاً منه في أن زوجته أقفلت باب الأسئلة والنكد.. لكن أمله قتل شرقتل، حين عاد صوت أم يوسف غاضباً..

ابتعدا عن بيت ولدهما (سعيد) لكن صوت زوجته، التي لا تحبها أم يوسف، صوت زوجة (سعيد) ظل مسموعاً، وهي تصب (جام وبرميل غضبها) على زوجها عاثر الحظ.

أبو يوسف يعرف أن ولده (سعيداً) ليس له من اسمه نصيب لا وافر ولا قليل، فزوجته تشبه شجرة رمان شوكها حاد وثمارها متعبة وقليلة، وعلى (سعيد) أن يعيش حذراً من أن تناله الأشواك بالوخز المبرح: وحذره لا ينفعه نفعاً واسعاً، في تفادي الوخز، والوخز في يده وروحه وحياته صار الحكاية المستمرة..

قال أبو يوسف، وصوت زوجة ولده يصخب في سمعه:

-ألا تظنين أن زواج ولدنا الكبير من (عهيده) يكون أخير له من زواج ولدنا الثاني؟!

-حظ الثاني أتعس من حظ الأول..

توقفت زوجة سعيد عن الصخب، فتاه الصوت.. واستراح سمع أبي يوسف.. لبعض الوقت. ولن يستريح طويلاً، لأن صوت أم يوسف ليس أقل أذية لسمعه من الأصوات المزعجة الأخرى.

بيوت (قرية الرمان) صارت وراء، وعن يمين الدرب.. حيث السفح المجاور للساقية بانت (قرية التين) قال أبو يوسف، محاولاً إضفاء جو من المودة بينه وبين زوجته، تجنباً لسخطها الدائم:

-هل تشاهدين البيت المجاور للسفح يا أم البنين؟!

-ما هذه الأسماء التي تطلقها عليّ وكأنك صرت شاعراً أو فيلسوفاً؟!

-أم البنين اسم قديم سميت به نساء جميلات وعاشقات؛ فلماذا تكرهين أن أسميك به؟!..

-اسمي يكفيني، وأنا لست محتاجة للعشق والجمال.. أعطتني الأيام ما يكفيني من كل شيء.

www.alkottob.com

قال أبو يوسف سراً: "أردنا المودة مع أم يوسف، فانقلبت الأمور عكساً".

أم يوسف لم تفهم معنى كلمات أبي يوسف (أم البنين) و(العشق) و(الجمال) العشق معناه عند هذه الزوجة، التي اختصها الدهر بـ (حدوة) لا مثيل لها في تاريخ الأحذية، واختصها عمرها بعبوس دائم، لا يترك ملامحها، وكأنها ستمطر سخطاً وتعاسة..

تظن أن (العشق) نوع من أنواع الحلي أو نوع من الحلويات.. المهم في الأمر أنها لم تجرب في حياتها هذا الفن العجيب، ولم تفهمه ولم تسأل عنه، ولهذا وجدت في نفسها سخطاً كبيراً على زوجها، حين كلمها هذه الكلمات، لظنها أنه يسخر منها وهو .قد يكون .مزج السخرية بشيء من مودة، فتذوقت أم يوسف طعم السخرية، ولم تتذوق الطعم الآخر. عاد أبو يوسف للحديث أملاً منه في بث روح المودة بينه وبين زوجته، رغم إحساسه أن روح المودة تختنق متى صادفت زوجته..

عاد أبو يوسف إلى الكلام، وأمله بالمودّة أضعف من أمل أسعد الشحاذ بأن يكون أنيقاً ونظيف الثياب، وقليل رش اللعاب. قال أبو يوسف:

–هذا البيت هو بيت (حمدان المحجوب) والد زوجة ابن الأحمد، ورثه ولده.

أدرك الرضى قليلاً مزاج أم يوسف، وراق لها أن تتجاذب مع زوجها أطراف الحديث.. والخوف من أن تشد الأطراف بعنف، فيتمزق الحديث، وهذا قدر هكذا أحاديث..

قالت:

–أنا مستغربة لأمر زهوة!!

لماذا مستغربة؟

–لماذا تزوجت ابن الأحمد، وتركت واحداً مثل (ابن الحسن)؟؟

–والدها حمدان الذي وصفه أحمد السعيد بالمحجوب، هو الذي زوجها لابن الأحمد.. وأنا أعرف كيف تزوجت..

–الحق مع أحمد السعيد أنه سمّاه (المحجوب).

–هذا كلام حسن يا أم يوسف.

–صرت تتفاصح مثل (الجبيلي) ولعلك مع الأيام، ستصير شاعراً مثل (عبدو الشاعر) انقطع حديث الزوجين، لأن أحداثاً كثيرة وقعت في قرية شجرة

www.alkottob.com

التوت، عادت إلى رأس أبي يوسف تدور فيها، وتصخب أكثر من صخب صوت أم يوسف: "سعيد لم يطلب الزواج إلا بعد أن عمل عند (ابن الحسن).. وزواجه رتب وعدّت عدته سريعاً.. وسعيد هو الذي خالف رأيه رأي الجميع، وترك البيت، وقد حاول غير مرة قطع (شجرة التوت) بحجة أنها تمد جذورها في العميق من الأرض، فتضعف أساس وجدران البيت.. أين كان تفكيرك يا أبا يوسف عن هذا الأمر؟!

لم يدم تفكير أبي يوسف بأحداث شجرة التوت، التي مرت عليها الأيام، لكنها لم تمحها.. لم يدم تفكيره لأن صوت زوجته جاءه كالمنبه المزعج.

بيت (الجبيلي) باقٍ على حاله، وأخته (سبهه) على حالها...

-ونسيت حال (شياله) الميالة يا أم يوسف الخيالة ونسيت حال يوسف بوحمود وحال دكانه؟

-اليوم فصاحتك زائدة.

أم يوسف لم تعرف إلا نتفاً غير كافية عن حياة (شياله) ولعلها لم تسمع أي كلام مفيد أو غير مفيد عن حب يوسف بوحمود لها... لأن هذا الحب العاصف على طريقة (أسعد الشحاذ) ذاع أمره، بعد أن تركت القرية.

لم ينتبه أبو يوسف طويلاً إلى بيوت شجرة التين المجاورة للسفح والساقية.

وزوجته المصون، نظراتها من نظراته، وانتباهها كانتباهه.

شجرة التوت التي أمام بيت (الجبيلي) كانت كبارق حب، لمع في ليل بغضاء وكراهية، لكن المفاجأة التي هزت وجدان أم يوسف، هي أنها رأت الدكان مغلقاً على غير عادته.

(الجبيلي) وسبهه لم يكونا إلى جوار التوتة... وحدها كانت شياله وقد خرجت إلى المصطبة، وهي تفرك عينيها، محاولة منها لإزالة بقية نوم علقت في الجفنين والأهداب... وقد ازدانت عيناها بهذه البقية، التي بانت كالنعاس الحنون...

أبو يوسف، رغم بؤس تجربته الغرامية، راقه أن يعاين بهاء شياله، وراق له أن يشبهها بشجرة التوت، قال لأم يوسف:

-شياله، بورك حسنها، إنها تشبه الشجرة الكبيرة

-هذا الكلام ما سمعته منك في يوم من أيامنا... أنت خيرك لغيري.

www.alkottob.com

وهل قدمت خيراً لأحد؟

–ألا تقول إن شياله حسنها مبارك، وإنها تشبه الشجرة الكبيرة؟

شياله سمعت أكثر كلمات أبي يوسف وزوجته، وقد أمتعها الإصغاء إليهما، وتمنت أن يصعدا إلى المصطبة.

أبو يوسف، لا ينسى أن يبادر من يصادفه بالتحية، فكيف إذا كانت شياله هي من سيبادرها بالتحية؟

تحيته جاءت حنونة كدفق نبع خالص العذوبة... وكذا جاء رد التحية. أم يوسف لم تشغلها التحية المتبادلة بين زوجها وشياله، إذ وجدت نفسها منشغلة بإغلاق يوسف بوحمود باب دكانه: أحست بحزن شديد، يضرب صدغيها، ويؤذي طمأنينتها، لأنها وجدت الباب مغلقاً، وقد ألفته مفتوحاً... تحمل له البيضات كل يومين أو أكثر، وتبيع البيضات أو تستبدلها بحاجات أساسية للبيت.

–دعت شياله أبا يوسف للجلوس على المصطبة.

فلم يصعد رغم رغبته الأكيدة بالصعود والجلوس...

سألها:

–أين (الجبيلي) وسبهه؟

–مشغول هذه الأيام بالرعي والدبق... وسبهه قد تكون ذهبت إلى أرض الساقية، أو إلى أرض الحارة الفوقانية، أو إلى الدكان.

صوت أسعد شاغب على حديثهما، لكنه لم يبتره... أم يوسف وحدهما بترت حديثهما: لتسأل عن حال الدكان وقد سمعت كلمة شياله، عن سبهه إنها يمكن أن تكون ذهبت إلى الدكان... سألت بوجع وحرقة وتلهف:

–أين صار الدكان؟

–نقل يوسف بوحمود دكانه إلى الحارة الفوقانية. قالت كلماتها، وغصة ثقيلة تعذب صوتها المشغول بالرقة.

قال أبو يوسف وهو ينظر إلى شياله، مخاطباً شوقاً طيباً في نفسه: "لماذا يترك بوحمود دكانه هنا، وينتقل إلى حارة أخرى؟".

قرأت شياله السؤال في صمت أبي يوسف وتأملاته؛ أما الزوجة العجيبة فلم تقرأ شيئاً، وبقيت مع أيامها في قرية شجرة التوت، يوم كانت تجمع البيضات وتحملها إلى الدكان.

www.alkottob.com

صوت أسعد ازداد علواً واقتراباً... من بعيد نادى:

–أين ابن عمي الجبيلي، يتلو من كتاب الرعي فصلاً؟

لم تجب (شياله) واكتفت بالالتفات إلى حيث بان أسعد وهو يحمل كيسه العجيب، ويشمر بنطلونه عن ساق، ويبقيه على ساق، وفي فمه لفافة لم يشعلها. بل تركها تعاني ويل لعابه وعضه من غير إشعال، وهل مؤذٍ الإشعال أي إشعال، أكثر من لعاب أساسه الآلام والحرق والغصص.؟!

شاهد أسعد أبا يوسف ومنديل زوجته التي يخافها خوفاً عالي الهمة.. أطلق العنان لشوقه وصوته:

"أبو يوسف السيد المحبوب لقلبي وروحي كفاك تقول للحلوي: وروحي... لأم يوسف يحلو العتاب"

أسعد، متاهة العمر المسيج بالمرارات والشوك القاسي، متاهة العمر، لم تفقده أن يبشر بالحب، ولم تفقده شجاعة التعبير عن الحب... وقد يكون استفاد من المتاهة القاصمة للظهر، وغير الظهر أن يقول الحب كلاماً طيباً، رغم فوضاه.

وقفة (شياله) زادتها بهاء، وعباءتها المطرزة، قدمت أيامها، لكنها بقيت أنيقة عليها... وعيناها الناعستان، ووجهها الطافح حياة، وشعرها المتروك على حاله.

(شياله) محط دهشة وراحة نفسية خاصة... وأسعد يحس بهذه الدهشة والراحة، لكنه لا يعني بها إرادياً، لعلمه الأكيد، أن حظه من شياله ليس أفضل من حظه من الأيام وعمره وهو يخبر نفسه دائماً، عندما تميل إلى بهاء شياله: "أنت يا أسعد لا تليق لواحدة مثل شياله. بل لا تليق إلا للكيس تحمله وتسعى في دروب القرى والحارات، بحثاً عن لقمة العيش، أو أية لقمة غيرها".

أخبر أسعد نفسه هذا الخبر على عجل، وهو يقبل على المصطبة ليلقي التحية على شياله أولاً، ثم على أبي يوسف وزوجته، التي امتدحها من بعيد، آملاً منه بقليل من رضاها النادر... أقبل على شياله بسعادة، وكيسه لم يفارقه، ورائحة الوسخ المتراكم على ثيابه وجلده سبقته، لكن شياله تعودت مكرهة على أن تستقبل أسعد ورائحته وكيسه، وأن تسقيه الشاي، وأن تطعمه الكعك إن وجد.

صافحها على عجل، وهزّ يدها بقوة، كمن يهزّ الريح، ثم هبط درجات المصطبة إلى حيث أبو يوسف وزوجته التي لم تودع شفتاها حالة الزم الدائمة...

ابتسامة أبي يوسف أشعرت أسعد بالسرور... لكن تحية أسعد لم تشعر أبا يوسف بالاستقرار– بل أشعرته بالاضطراب، إذ قبّله قبلاً مصحوبة باللعاب،

www.alkottob.com

ومصحوبة باللطم المبرح. ووجنتا أسعد قاسيتان كرمانتين يابستين، راح بهما يضرب وجه أبي يوسف. وهذا الضرب بالوجنتين هو التقبيل الأسمي وهو التعبير الأصدق عن عميق الحب ووافر الشوق، في عرف أسعد.

شياله حمدت الحظ والدنيا أن أسعد لم يوفق في عمره إلى تقبيلها، وكذا أم يوسف التي راعها ما رأت من تقبيل أسعد الانفجاري... وراعها أكثر أنها رأته ينجز تحيته لزوجها ويتوجه إليها. إذ قدرت أن غيمة من لعابة ستحط رحالها على منديلها ووجهها، ولا أمل لها بالفرار من تحيته ولعابه، وأسئلته الاطمئنانية عنها وعن أولادها وعن واقع حالها ودجاجاتها وما آلت إليه مصائرها، بعد تركها في عهدة زوجة كريم.

عاينت شياله عناق أسعد لأبي يوسف، وقد أشفقت عليه... وعاينت تحيته لأم يوسف وأسئلته المتلاحقة المصحوبه بالكثير من اللعاب بعيد المدى:

كيف حال حبيبة القلب أم يوسف؟ وكيف حال الأولاد الأفاضل؟

وكيف حال الجيران وأنت خير العارفين يا أم البنين؟

وحال الدجاجات كيف هو بعد أن تركت قرية شجرة التوت وكنت زينتها ومباركة فيها؟!

أبو يوسف أخذه الضحك، حتى غامت عيناه بالدمع... وشياله وجدت نفسها تسند ظهرها إلى جذع التوتة، من ثقل حالة الضحك التي سيطرت عليها سيطرة تامة، وهي ترى أم يوسف في حومة لعاب وأسئلة ومدائح أسعد التي لا تقدم ولا تؤخر.

كاد أسعد ينسى الكيس البائس الشقي على المصطبة، لولا أن نبّهه أبو يوسف:

-هل تترك كيسك يا أسعد عند شياله؟

-كيف أنساه يا سيد الأسياد والعارف بأحوال شجرة البلاد، والمحب لخير العباد، وعلى صوت أسعد معتاد، وباكراً أتاك الرشاد كجمل إلى الرعي منقاد...

-لا تكمل مديحك يا أسعد لأنك إن أكملت لعنت نفس من مدحت، فاطلب الذم بدل المديح...

شياله ودعت أبا يوسف وزوجته وأسعد، وسارعت إلى حمل الكيس ورمته من على المصطبة إلى حيث أسعد فتح كفيه، كمن ينتظر هبة من الغيم أو يبحث

www.alkottob.com

عن طائر فلا يأتي، بل يرمي (مصعته) فتكون ملء الكفين. وهذا قدر منحوس كأسعد.

أم يوسف لم تنتظر وداع زوجها المتمهل، إذ آذاها أن ترى باب الدكان مغلقاً... أسعد كاد يصطدم بأبي يوسف ويسقطه أرضاً ويهوي فوقه، وهو ينظر إلى شياله ويودعها على طريقتيه الشاقولية والأفقية.

فرح أسعد حاله كحال كيسه، مفجوع بالأناقة والترتيب. وقد بان ذلك على حركاته ووداعه لشياله: رفع يده اليمنى، ثم رفع اليسرى، ثم بدأ يمط رقبته، كمن يتنفس بمط الرقبة، وكأن الهواء الطلق أبعد من أنفه وأنفاسه، فحين يمط رقبته يقترب من الهواء الطلق...

شياله انصرفت عن أسعد ووداعه، الملحاح، الذي كاد يسقطه ويسقط معه أبو يوسف، الذي تمالك نفسه، ومال إلى الجدار، فاستند إليه.

***

الجرة الكبيرة المركوزة إلى جوار الحائط أساسية في حياة (الجبيلي) والمصطبة الواسعة... والدرب الواصل بين الدكان والمصطبة علامة فارقة وحد فاصل بين البيت والدكان، وبين (الحارة الفوقانية) و(الحارة التحتانية) لكن هذا الدرب صار موحشاً، بعد أن نقل يوسف بوحمود حاجاته، وعمله إلى حارة أخرى... أحست أنها بحبها ليوسف، غامرت مغامرة صعبة، إذ كان عليها أن تتأمل واقع حاله وحياته وزوجته وأولاده، قبل أن تسمح لمشاعرها بالانسجام مع مشاعره:

يوسف اهتم بها اهتماماً خاصاً، وأشعرها بحبه لها، وازداد معها شفافية وعذوبة.

وقد تكون هي السبب في ازدياد شفافيته. لكنها جهلت أن هذه الشفافية قد لا تثمر حباً مطمئناً، ما دامت حياته متداخلة ومتشابكة تشابكاً لا يدع المجال متاحاً أمام الحب لكي يطمئن ويهنأ.

قالت شياله لنفسها: "يوسف بوحمود ترك الدكان تحت ضغط زوجته وكريم، ورسائل أسعد، التي تفضح أي حب، مهما كان محاطاً بالكتمان... وزوجته على حق في أن تفعل ما تفعل من أجل حياتها".

www.alkottob.com

في الأرض القريبة من الساقية بان (الجبيلي) وهو يسعى وراء الخراف والبقرة وبانت (جاكيته) الشقيانه، التي عاشرته طويلاً... وهل لها من حيلة في ترك معاشرته؟

خيالات شياله، سرحت مع سرحان قريبها... وتاهت في تأملات أولها موحش وآخرها:

«الجبيلي» ترك قرية النبع وجاء مع أحمد السعيد... هرب من العوز والحاجة فسقط في وحل العوز والحاجة. وسبهه، تبعت الجبيلي، فعاشت نفس حياته... في قرية النبع كانت أيامنا واضحة السواد كنت ألتقي (عبدو الشاعر) ويقرأ عليَّ من أشعاره، ويغني، ثم غاب وابتعدت أغانيه... تزوجت من غير أمل أو تفكير، فكان زواجي بائساً شريراً كزواج سمر وأختها جوهرة...".

تأملات موجعة للرأس والروح استبدت بنفس شياله، فأبعدتها عن الأفق والكروم، ونسيت أن عليها إعداد الطعام... وإعداد الطعام في بيت الجبيلي عمل متعب ويبعث على الضيق... بقيت في ذهولها إلى أن جاء صوت ابن الأحمد وهو ينادي زوجته، لترسل له الطعام...

صوت ابن الأحمد نبه شياله إلى ضرورة السعي في مجاهل البيت بحثاً عن أواني ومعدات ولوزام الطبخ... دخلت إلى البيت، دون أن تنظر إلى أن العتبة تكاد تسقط من قِدمها وتسوّس خشبتها العريضة... وكيف تنظر إلى عتبة البيت، ونفسها وحياتها كلها عتبات، لا بد من الاصطدام بها والمعاناة معها كل وقت وحين.

بدأت التعاسة تؤذي ملاحة شياله... وكيف لا تؤذيها التعاسة... وحياة الجبيلي وسبهه، لا تجود بغير الشقاء المبرر وجوده... بقيت تنظر إلى نفسها، فتصطدم بالأسف والآمال الصريعة... وتقول: "لم يتحقق لك يا شياله أي موعد يليق بالحياة المدرسة ضعت عنها قبل أن أكمل المرحلة الثانية... (عبدو الشاعر) ضاع عني وضعت عنه... زواجي كان الأرض الخربة، لا يخبئ إلا الخراب والأذية... يوسف بوحمود أحبني فكانت الحياة أقوى من حبه ومنه، فهرب من حبه تحت ثقل ضربات الحياة والأيام..."

في داخل البيت الأغراض في حال من الفوضى والتفاهة المفرطة: الصحون في جهة من جهات الرف... والقدر في جهة أخرى الاهتداء إليها ليس هيناً.

والقمح المجروش في كيس، البحث عنه متعب كحب يوسف بوحمود، أو

www.alkottob.com

كمعاشرة ابن الأحمد... والملح في كيس ليس محدداً... والعدس أيضاً في جهة غير معلومة تماماً...

الجرة، وحدها، محدد مكانها، وغطاؤها... والجرة وحدها ليست كافية... وما على شياله المليحة إلا أن تبحث وتسعى وراء الأكياس المعلق بعضها والمتروك على الأرض بعضها.

***

ابن الصبرة علاقته مع الأرض والأشجار، لا تتعب، لكنه تميز بحبه لـ (الحلاوة) أكثر من تميزّه بحب الأرض والأشجار، أو أي حب آخر... وقد يكون حبه (للحلاوة) يفوق حبه لزوجته (أم محمود).

لا يكاد يرى علبة (حلاوة) حتى يقبل عليها... وأكله لها فيه براعة عالية، إذ يدفع بكمية من (الحلاوة) المهانة، إلى فمه المشهود له بعض لفافات التبغ، والمضغ المتعجل... يدفع بالحلاوة إلى فمه، فلا تبين حركة المضغ على الفم، حتى يدفع بحلاوة أخرى... يجتهد ابن الصبرة اجتهاداً واسعاً في أكل الحلاوة، والتعبير عن حبه لها، والتحدث عن منافعها، التي لا تحصى... وقد اشترك في مباراة محدودة، في دكان (بوحمود)، وكانت نتائج هذه المباراة دائماً في صالحه، وفي غير صالح علب الحلاوة، التي تقع عليها ويلات المباراة والالتهام العجول.

شهد له ابن الأحمد، وهو من محبي الحلاوة، وغيرها، من أصناف المأكولات، شهد له غير مرة، ببراعة التهامه (الحلاوة).

هذه العلاقة الجديرة بالذكر، التي تربط ابن الصبرة بالحلاوة، هي قريبة الشبه بعلاقته بأرضه وأشجاره، و(أم محمود) زوجته، التي عاشت معه الأيام السوداء والبيضاء.

الساقية هي التخم الفاصل بين (حارة الساقية) والكروم والحارة العتيقة... وأرض ابن الصبرة، تجاور الساقية، وأغصان شجرات الزيتون تتمادى، فيصل ظلها إلى النبع وإلى الدرب المؤدي إليه.

***

www.alkottob.com

درب الرشاد عند أبي يوسف، هو أن يتصل الإنسان مع أهله وجيرانه، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، وأن يمتنع عن الأذى، وأن يكون صادقاً، وأن يتعب في حماية رزقه ونفسه من الخراب والأيدي الظالمة.

ابن الحسن أهمل نفسه وأهمل درب الرشاد، فلم يرده، ولم يسر عليه. فابتعد عن الجيران، وازداد ابتعاداً بزواجه من (الغريبة) التي بدأت بالأذية منذ حلت في حارة الساقية، حيث بيت ابن الحسن زوجها.

بيت ابن الحسن هو البيت الأبعد في الحارة، بل هو آخر بيوتها... تفصله عن بيت ابن الصبرة الأرض العالية، وكروم ابن الصالح وابن الأحمد وكريم...

وهو يختلف عن ابن الصبرة في كل ملامحه تقريباً: ابن الصبرة قليل الطول، ورأسه ليس كبيراً كبراً واضحاً، رأسه يتناسب مع قده... وعيناه حادتا النظرات... إذا نظر عرف... وإذا قرأ فهم... وطبعه حاذق، يعرف كيف يصرّف أموره، فينتفع، دون أن يؤذي، وقد أفلح في صون رزقه، وبناء بيته، وفشل في تعليم ولده البكر (محمود) فقال عنه أبو يوسف:

ابن الصبرة لم يوفق في ولده الأول، مثله مثل أهل أحمد السعيد. أما ابن الحسن فقدّه طويل ورأسه مفلطح وعيناه شيطانتا النظرات، فلا يعرف أن يستقر بنظراته... وطبعه فوضوي، لا يهدأ على أمر، ولا يتعمق في قضية. وقد غاب عن الحارة وقتاً غير قصير، ثم عاد. وبعد حين من عودته تزوج (الغريبة) التي لا تعرف هويتها وحياتها، بالنسبة للجيران... وحدها زوجة ولد أبي يوسف الثاني، بقيت على علاقة طيبة أو غير طيبة مع ابن الحسن وزوجته (الغريبة) وبقيت تزورهما وتخدمهما.

***

–ضيق ابن الحسن الدرب.

–من قال لك هذا؟

–أنا نفسي ذهبت وعانيت في الوصول إلى النبع وفي الرجوع...

لم يكمل ابن الصالح وزوجته الحديث، لأن قامة ابن الحسن بانت... وقد سمع الزوجان صوت ابن الصبرة، وهو يرد تحية ابن الحسن... وسمعاه، وهو يسأله عن الأرض، وكيفية سقيها من النبع.

قال ابن الصالح:

www.alkottob.com

–ابن الحسن مجيئه إلى ابن الصبرة سيؤذينا...

–الغريبة تكون قالت له: زيارة ابن الصبرة تنفع!

–وحكاية الدرب والنبع ستجرّ علينا البلوى، لأن ابن الصبرة إذا استقر رأيه على أمر، فلا يفكر بعواقبه.

ابتعد ابن الحسن وابن الصبرة باتجاه الساقية، أما ابن الصالح وزوجته، استطابا البقاء تحت أغصان (السنديانة) يتجاذبان أطراف الحديث. نظر الزوج إلى جهة الحارة العتيقة فبانت له المصطبة المهجورة والجذع الذي فرّع وطالت فروعه، رغم الإهمال وبان له البيت الترابي... قال لزوجته:

–غياب أبي يوسف عنّا آذانا وأضرّبنا!

–أولاده لم يقدّروا الأمور تقديرات صحيحة، فضاعوا وضيعّوا معهم والدهم وضيّعوا شجرة التوت وأيامها وأيامنا.

–عاد منذ أيام قليلة، وزار الحارة بيتاً بيتاً... ونام في بيت كريم.

–هل جاءت أم يوسف معه؟

–جاءت وزارتني.

ابتسم ابن الصالح ابتسامة هزيلة، لم تدركها الحياة، حتى اختفت وضاعت... وابتسامته إشارة واضحة إلى مشية أم يوسف وأسلوبها، وحياتها، وإشارة إلى كلمات أبي يوسف التي يصف بها زوجته.

لم تجب الزوجة على ابتسامة زوجها الملغومة، لأنها لم ترها ولم تنظر إليه، بل انشدّت بنظراتها إلى (الغريبة) التي بانت في الأرض العالية، وبان وراءها رجل وامرأة، قدّرت زوجة ابن الصالح أنهما ولد أبي يوسف وزوجته.

الغريبة تمشي وثوبها الطويل يكنس، ما أمكنه الطريق المتعرج بين الأشجار، وولد أبي يوسف يمشي وراءها محني الظهر، ما أمكنه الانحناء، لاعتقاده الراسخ، أن الانحناء ضرورة حياتية، لا مهرب منها، أمام العوز والعتبات الواطئة، أما زوجته الممتلئة امتلاءً فائضاً عن الحاجة، لا تجد رغبة في نفسها بالانحناء، بل هي تكلف زوجها بهذه المهمة، أما هي فتبقى تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال... كسنديانة تهزها الريح، فلا تستقر أغصانها. وهي تشبه السنديان شعرها ملتم على بعضه كورق السنديان... ورأسها غير بعيد عن كتفيها، وخصرها في ترحال دائم، إذ ضاع الخصر في البطن، والظهر في الظهر... فلا يمكن لعاشق

www.alkottob.com

أو غير عاشق أو ناظر أو متنبئ بأحوال الكياسة والفراسة، أن يعرف الخصر من غيره ، أو البطن من الصدر أو الفخذين من الساقين، هي متماسكة متوحدة لا يعرف طولها من عرضها ولا حسنها من بشاعتها.

هذه الحال تنسحب على طباعها، فهي قوية صارمة... آتتها الأيام قوة في الطباع تفوق قوة زوجها... وقد أعجبت (الغريبة) في بعض سلوكها، وقد ملتّها في بعض السلوك.

أحبت مقدرتها على ضبط زوجها ضبطاً تاماً، وأحبت جدارتها في العمل، لكنها لم تحب ملازمتها لزوجها. فالغريبة قد تريد ولد أبي يوسف وحيداً أحياناً، وقد أكدت عليه أكثر من مرة أن يحضر إليها، دون زوجته.

هذا واقع حال الغريبة مع الزوجين، عرفه الجيران أكثرهم. ابن الصالح وزوجته عرفاه جيداً... وفي الهواجر المطمئنة سمعا أحاديث الغريبة مع سعيد ومع زوجته. ابن الصالح قال لزوجته المندهشة بحياة الغريبة، وعلاقتها مع ولد أبي يوسف وزوجته:

–ما هذه المرأة العجيبة: سمعتها أمس تقول لولد أبي يوسف:

–أنت عزيز علي، وسأهتم بأمرك، فلا تبتعد؟!

زوجة ابن الصالح خبرتها في هكذا كلام، له علاقة بالحب أو ما يشبه الحب، بائسة أكثر من بؤس (الجبيلي) و(أسعد الشحاذ) تابع ابن الصالح حديثه، وشعور بالأسف يعترض حلقه كشوكة قاسية، أو كحلم فاشل صدئ، بقي في الذاكرة كوجع لا يذهب أذاه:

–كيف يسمح ولد أبي يوسف لنفسه أن يكون ضعيفاً أمام (الغريبة) التي نشرت الأذى في حارات شجرة التوت؟؟

ردّت الزوجة الملتمّة على حزنها، كالبردان، الباحث عن دفء عصي... بعيد:

–هو أمام زوجته لا تقوم له قائمة إلا بأمرها...

–وابن الحسن مثله، لا تقوم له القوائم إلا بإذن الغريبة.

–لكن ابن الحسن غرّب في الدنيا وشرّق، أما ولد أبي يوسف فبقي من غير تغريب أو تشريق.

عاد الصوت إلى الهدأة الموجعة، لأن قامة ابن الحسن بانت، وهو يصعد

www.alkottob.com

من جهة النبع، وخلفه ابن الصبرة...

فرح طفيف كاد أن يحل على روح ابن الصالح وزوجته، لولا أن حضر ابن الحسن وابن الصبرة... فهرب الفرح كطائر حنون أخافه دبق ابن الأحمد أو دبق الجبيلي.

***

أسف صخاب يضج في روح أبي يوسف: بيته مهجور، وشجرة التوت، قطعت، وعادت فرعت... لكن عودتها قد لا تدوم، لأن ولده الثاني يستجيب لإرادة ابن الحسن، والغريبة، فيضيق الأرض على الجذع المتبقي، ويحاول هدم البيت.

الأرض المسيّجة، التي كانت تحيط بالمصطبة وبشجرة التوت، لم يذهب سياجها، لأن أبا يوسف، بقي، يعيد عيدان السياج إلى حالها كما كانت: حتى إنّه آخر مرة زار فيها الحارة العتيقة، استعان بابن الأحمد، على تركيز العيدان المرمية...

وتمنى على نفسه وعلى جاره أن يعاود بناء البيت.

***

قريبة أبي يوسف، حسب تسمية أم يوسف ليست لائقة لمقام ابنها البكر، الذي بنى بيتاً، وفرشه وبنى بيتاً آخر إلى جوار بيته، خصصه للدجاجات، قالت له أمه:

-الدجاجات لا تضرك يا ولدي... تأكل بيضاتها، وإذا دعت الدواعي، إنك تأكلها... لكن لا تتعجل في ذبحها... فالدجاجات في البيت نفع ورزق...

-ومن يعتني بالدجاجات إذا ذهبت أنت وأبي إلى بيت أخي أو إلى حارتنا العتيقة؟!

-علّم زوجتك القادمة على تربية الدجاجات قبل أي أمر آخر.

-هي بنت الدجاج!!

أرادت أم يوسف أن توضح لولدها خطأه، لكنها لم تفعل، لأن أبا يوسف أصلح ما حصل من خطأ، بابتسامته الهادئة... ثم أصحب الابتسامة بطلب

www.alkottob.com

مشفوع بالرجاء، من الزوجة الصالحة أم يوسف، بأن تعد لـه ولولده البكر إبريقاً من الشاي:

–ما رأيك بإبريق من الشاي يا أم البنين؟!

–سأحضر لك ولولدك الشاي، لكن فلسفتك لا ترضيني!

–اعتبريني مثل الجبيلي فيلسوفاً وفصيحاً!

–اذكر الديب، فيحضر يا فصيح الفصحاء!

نظرت أم يوسف من الباب المفتوح، فلاح لها الجبيلي يسوق أمامه بعض الخراف، ويسعى باتجاه البيت المسوّر بالقليل من الحجارة والقليل من الأشجار.

من بعيد قال الجبيلي:

–هذا بيت ولدك يا جارنا العتيق يا أبا يوسف!؟

سمع أبو يوسف نداء جاره المقبل على الدنيا إقبالاً عجيباً... ونهض لملاقاته... وسبقه صوته:

–هذا بيت ولدنا... وقريباً سيصير بيت قريبتك!

شعرت الزوجة بأن أملاً كان بعيداً... اقترب بمجيء الجبيلي: أمل معرفة حب يوسف بوحمود لشياله... وأمل أن يخبرها عن حال دجاجاتها عند زوجة كريم.

ليس هناك مثل الجبيلي في رواية الأحداث... فأنت تراه يتكلم في كل الأمور التي يسأل عنها... ويهيِّئ لكل أمر كذبة بيضاء أو سوداء، تليق بمقام المستمع، وقد لا تليق... المهم عند الجبيلي أن يتكلم، وأن يشعر بأنه رجل له مكانته اللائقة بين الحضور... هذا ليس ذا شأن بالنسبة لأم يوسف... أن يكون لـه مكانته أو من غير مكانة، الشأن عندها أن يخبرها بخبر حب يوسف بوحمود لشياله، وأن يخبرها، وأن يتحيز لصالح رأيها عن حياة عائلة عشيقة ولدها البكر... أما عن الدجاجات التي أبقتها أمانة دائمة عند زوجة كريم، فلا لواحد كالجبيلي من فائض من التفاصح والأكاذيب، حتى يحقق لأم يوسف ما ترجوه.

سترة (الجبيلي) لم تتبدل، وكذا أمر حذائه، الذي لا يقل أهمية عن (حدوة) أم يوسف.

وقد بدأ الجبيلي، من حيث لم يرتب، بدأ حديثه عن حذائه:

–هذا النوع من الأحذية متين، وهو أمتن من حذاء ابن الأحمد.

www.alkottob.com

أم يوسف رغم انشغالها بإعداد إبريق الشاي، ورغم أنها وجدت اختلافاً كبيراً بين ترتيب ولدها للأواني والحاجات والأغراض، وبين ترتيبها، وهذا الاختلاف يربكها. فهي تعلق الأكياس في مسامير محددة لهذا الأمر... والإبريق يبقى على الرف، حتى يطلب، أما عند ولدها فلا يوجد مسامير، ولا يوجد رفوف... يوجد كرسيان خشبيان كئيبان، وضع عليهما خشبة عريضة، وعلى الخشبة وضعت الأغراض والأكياس والكؤوس... هذا الأمر آذى مزاج أم يوسف، وقد فكرت بوسيلة ما، لرفع أي (ساموك) في بيت ولدها، لتدق فيه المسامير، وتعلق فيه الأكياس... أم يوسف لا تحترم أي بيت، مهما علا شأنه، وبيت ولدها ليس عالياً في الشأن أو في غير الشأن... لا تحترم أي بيت خال من المسامير والأكياس المعلقة بها... رغم ارتباكها وعدم ارتياحها لترتيب ولدها للأغراض، فقد سمعت كلمات (الجبيلي) عن حذائه، وتمنت أن تشارك في الحديث الحذائي، بنبذة موجزة أو مفصلة عن (حدوتها).

خراف الجبيلي ربطها أمام البيت خشية أن تفر هاربة وتعود إلى (البازار) القريب... الدرب الواصلة بين البازار والمدينة بينٌ لا تخطئه الخطوات... والجبيلي يعرفه خير معرفة، من كثرة الذهاب والإياب عليه... ومن اللياقة بمكان أن يتحدث الجبيلي عن حذائه الصابر على قدميه، وعلى سيره الذي لا ينقطع... وعلى حراكه الدائم سواء بقي في الحارة التحتانية، أو ترك الحارة إلى المرعى القريب، أو إلى السفح المطل على الساقية، حيث أرض ابن الأحمد وابن الصالح وابن الحسن.

عادت أم يوسف وفي يدها الإبريق المربوط غطاؤه بعنقه، وفي يدها الثانية (الطبق) المحترم حسب تصريحاتها الدائمة، وعليه الفناجين المتروكة للأيام، فلن تتكسر.

ابتهج الجبيلي، لمشاهدة الإبريق والفناجين، ونسي في زحمة الابتهاج أن ينظر إلى وجه أم يوسف وعبوسها المستمر، وفمها مزموم الشفتين... وانتقل من حديث الحذاء ومتانته ومقدرته على تحمل الوعر والمشقة وحماية القدمين، من أي جرح أو أذى... انتقل من هذا الحديث إلى حديث الطيور والصيد والدبق:

-كاد الطائر الكبير أن يصطاده الدبق لولا أن جاءه صوت ابن الأحمد!

-كيف هو ابن الأحمد بعد مجيء (الغريبة)؟

-التقيت به منذ يومين قرب الساقية... كان مغضباً من محاولة ابن الحسن،

www.alkottob.com

إغلاق الطريق المؤدية إلى النبع.

–الطريق هذه في أرض ابن الصبرة... كيف يلغيها ابن الحسن؟!

***

حمارتا ولد أبي يوسف انشغلتا بحك جلدهما بفروع شجرة التوت، وأحياناً بالعيدان المتبقية، في السياج الخشبي المسوّر للأرض الصغيرة المحيطة بالبيت والجذع القديم... وكاد انشغالهما بالحك يسبق انشغالهما بحراثة التراب النشف العطشان:

تشدان المحراث شدة أو شدتين، فتصلان إلى فروع الشجرة أو إلى عيدان السور، فيأخذهما الحك... حتى يأتيهما لسع عصا ولد أبي يوسف، فتعود إليهما الهمة المرهقة... وكان صوته يسبق عصاه، إذ يخاطب الحمارتين التعيستين بلهجة آمرة، ما أمكنه الأمر: هيه... شدي... هيه.

صوته ولسع عصاه محط اهتمام الحمارتين، لكن حيلهما ليس قادراً على الاستجابة لمطالبه في الشد والدأب.

لاحظ ابن الصبرة واقع حال ولد أبي يوسف، مع حمارتيه غير البدينتين بدانة ملحوظة... وأخذته الشفقة على حاله... واستبدّ به الغيظ والقلق والسؤال:

هل يكون ابن الحسن فكر بزراعة أرض أبي يوسف بالتعاون مع ولده؟...

وهل يكون رمى بفعلته هذه إلى اقتلاع جذع الشجرة القديم، وتخريب المتبقي من الفروع، وقطع الدرب عن بيوت الحارة العتيقة؟...

علبة الحلاوة، التي اشتراها من دكان يوسف بوحمود شغلت عليه أنفاسه:

رائحتها تخترق العلبة والكيس الورقي، وتحاور أنفاسه وتوقظ شهيته السهرانة دائماً والصاحية صحواً أكيداً، في حضرة (الحلاوة). رغم اهتمامه البالغ بالعلبة، التي سينال ما فيها من (حلاوة) بالمضغ وغير المضغ، حتى يأتي على آخرها.

رغم هذا الاهتمام آذاه أن يرى ولد أبي يوسف يفلح أرض شجرة التوت على حمارتين، لا نفع من فلاحتهما، وآذاه أكثر أن الحمارتين أمعنتا في حك جلدهما بفروع الجذع المتبقي.

وقد خاطب نفسه آسفاً محزوناً، تصفر في ذاكرته ريح الأيام، وتشتكي في

www.alkottob.com

صدره همهمة الحياة... خاطب نفسه: "أين أنت يا أبا يوسف من ولدك هذا؟... كنت تحرث كرم الساقية حراثة لا تشبهها حراثة... وكانت بقرتاك حكاية الحارات... الكروم كلها تعرفك وتعرف مقدرتك وصبرك..."

هذا ما قاله ابن الصبرة لنفسه، وهو يعاين واقع حال ولد أبي يوسف ويعاين مكابدته ومعاناته مع الحمارتين... وقد نادى عليه لائماً عاتباً:

-فلاحة الحمير لا خير فيها يا ابن أبي يوسف.

-هذا حظي وقدري يا أبا محمود.

-ألم يوصك أبوك باقتناء بقرتين أو ثورين؟..

صمت ولد أبي يوسف، وبدل الجواب قدم علبة تبغه لابن الصبرة، ليلف لفافة عريضة منها... وقد فضل الصمت على الكلام، لأن لسان ابن الصبرة، لا يعرف أن يخبئ تحته بعض الحكايات... جلس ولد أبي يوسف القرفصاء، بينما ابن الصبرة بقي واقفاً، وحرصه على علبة الحلاوة بقي على أشده، فلم يرفع الكيس، ولم يتركه إلى حين انشغل بلف لفافة التبغ، من علبة ولد جاره العتيق.

دخان اللفافتين، أخذه النسيم فضاع في الفضاء... وأسراب الطيور، لم تتوقف أجنحتها عن الخفق في جهات شجرة التوت... أسراب تقل أعدادها، وتبتعد جماعات جماعات... تسرح في الآفاق وفضاءات الأغصان، وأسراب أخرى تسعى في الأعلى، ثم تنحدر على مهل، أو على عجل تمر برؤوس الأشجار العاليه، وكأنها تقول تحياتها وبوحها... وبعد التحيات والبوح يستقر بها المقام قليلاً إلى جوار النبع وحفاف الساقية، أو قريباً من التخوم والعشب الطافح بالاخضرار بعد اصفرار، أو الطالع من أديم التراب، كالنمش المجتمع في وجه ابن الأحمد.

ابن الصبرة راقه النظر إلى الأرض والأشجار والطيور، التي لا يهدأ حراكها وكأنها في سفر قريب مستمر بين الأشجار والأشجار، وبين الآفاق والساقية والتخوم والعشب.

ولد أبي يوسف لم تسترح عيناه ظلتا ترقبان المدى المزدان بالخفق وصوت الصداح... وتنشدان، بين اللحظة واللحظة... إلى الساقية والدرب الآتي من الحارة المقابلة؛ وقليلاً ما كانت نظراته تتجه إلى ملامح ابن الصبرة، التي أتعبتها المعاناة والمكابدات والأيام: في تجاعيد وجهه فصاحة ليست كالفصاحات... ليست كفصاحة (الجبيلي)... فصاحة بائسة وجديرة بحياته المسيّجة بالشقاء... إنها

www.alkottob.com

حكاية التعب والبحث اللجوج عن لقمة العيش... وجهه الصغير رغم تجاعيده المستبدة به استبداداً أكيداً، لا تفارقه حالتان حنونتان: حالة الشجاعة الهادئة والموجزة والسريّة أحياناً، حتى يصعب فهمها ومعرفة حاله... وحالة ثانية هي المودة المشفوعة بالطمأنينة... وأحياناً، لا تنجو من أذى الغيظ المتلبد في عمره وملامحه كغيمة سوداء ليست تنبئ بالمطر...

ولد أبي يوسف لا يجيد التأمل العميق، ولا يفكر بأحداث الحياة تفكيراً مصاناً بالإدراك، فتضل نفسه عن الهدى، وكذا يضل رأيه... لكنه رغم هذا يعرف أن ابن الصبرة يقول ما يدور في رأسه، ويبدي رأيه وإن آذى به الآخرين... وهو ليس كارهاً، ولا باغضاً، رغم ما يظهر على ملامحه من المكابدات.

آمال صغيرة تلهو بها المخاوف، كلهو الطير بالغصن أو بالنسيم... هذه الآمال عششت في عمر ابن الصبرة منذ سنين بعيدة صار يعرفها ويفهمها، ولا يتعذب طويلاً في الوصول إليها وأحياناً تسلّي روحه.

أمله الأول أن يبقى صحيح الحب والعلاقة... سواء كان هذا الحب بينه وبين أرضه والأشجار التي زرعها، أو التي ورثها عن أبيه؟ أو كان الحب بينه وبين الجيران وقد رده أمله هذا عن متابعة الطريق، مع ابن الحسن.

خشي أن يستمر معه، لعلمه الأكيد أنه لن يخلص من ألاعيبه، وأنه لن يفهم مكره إلا بعد أن تقع الفأس بالرأس.

ورأس ابن الصبرة صغير حجمه، فلا يقدر على تحمل فأس خديعة ابن الحسن، الذي دربته الأيام وألاعيبها فصار مكاراً عجيباً، كما قال عنه ابن الأحمد وابن الصالح، وأمل آخر يشغل على ابن الصبرة حياته هو نبع الساقية، وأن يبقى يتدفق إلى جوار أرضه.

والأمل الذي فجع به ابن الصبرة، رغماً عنه... والآمال التي لا يخسرها أمثال ابن الصبرة إلا مرغمين، لأنها تكون لهم كالإرث النفيس.

فجع بأمل قريب إلى كل مشاعره... قريب إلى حزنه وإلى فرحه وإلى حياته في حارة الساقية... هجر أبي يوسف لشجرة التوت وللحارة العتيقة، أفقد ابن الصبرة بعضاً من شجاعته، وخلخل طمأنينته...

كثيراً كان ينتظره على المصطبة التي أمام بيته، ليعيش معه ساعة أو ساعتين، في هاجرة من هواجر الصيف القاسية... كان يصغي إلى حديثه عن حر الهواجر... وكثيراً كان يلم حكايات وحكايات عرفها أو عاشها أو سمعها، ثم

www.alkottob.com

يفلشـها فـي حضـرة أبـي يوسـف وشـجرة التـوت، فـيحس بـأن الحكايـات أخـذت مصداقيتها أو فقدتها.

غياب أبـي يوسف أوجع روح ابن الصبرة وأفزع أملـه بـأن يعود الحب الذي كان.

كل هذه الآمال داعبت وأوجعت نفس ابن الصبرة الذي استمر حديثه مع ولد أبي يوسف، واستوقفته... ولم يبخل بالكثير من العض على لفافة التبغ العريضة، التي شاخت روحها، وهي بين شفتيه، وفي حومة العض المكين، الذي تميز به للفافة، لا لغيرها، حسب تصريحاته القليلة حول العض.

بيت ابن الحمودة المجاور لبيت أبي يوسف تركه إلى غرفة بناها قرب شجرة الزيتون الكبيرة.

لكنه لم يهدمه، وجعله للمؤن والدجاجات والبقرة التي اشتراها من الجبيلي.

ربط ابن الحمودة البقرة في الوتد القريب من الحائط، وملأ معلفها تبناً خلطه بالشعير المجروش، وانصرف إلى مرف الدجاجات المجاور لمكان البقرة... فلم يجدها قد أتت كلها إلى مرفاتها.

ترك الباب الخشبي المصدوع قليلاً، مفتوحاً، وخرج باتجاه المساء المزركش بحمرة الشمس المشوبة بالضباب والدكنة.

بيت البقرة والدجاجات يقابل بيت سكن ابن الحمودة... يبعد عنه مسافة قصيرة.

الدرب الرئيسي هو الحد الفاصل والواصل بين البيتين.

من الجهة الشرقية يجاور بيت ابن الحمودة القديم بيت ترابي قديم آخر، هو بيت أهل زوجة ولد أبي يوسف، الذي تركه والدها، وبنى بيتاً غيره من الأحجار والباتون في قرية زوجته المقابلة لقرية (الرمان).

والد زوجة ولد أبي يوسف ترك الحارة العتيقة وأقام حيث أرادت زوجته (أم رفيده).

وقد وجد التبرير لنفسه: "من يعثر على جمال كجمال زوجتي، عليه أن يرحل وراءه، حيث دارت به الدنيا، واتجهت به الدروب".

فاجأ سمع ابن الحمودة صوت ابن الصبرة وولد أبي يوسف، فعاجل الخطو إليهما... وقد بانت لعينيه قامة ولد أبي يوسف، ولم تبن له قامة ابن الصبرة...

www.alkottob.com

وهو أيضاً لم يبن لهما، إلا حين خرج من الفسحة المحاطة بالجدار... ابن الصبرة وابن الحمودة كلاهما لا يرتفع ارتفاعاً كبيراً على سطح اليابسه أوعن أي سطح، لكنهما عوضّا عن ذلك بالدأب على الحياة والمواظبة على العيش الكريم.. ورأس كل منهما شبيه برأس الآخر، ويختلف وجه ابن الصبرة عن وجه ابن الحمودة بكثرة التجاعيد التي لا تخفي أبداً –كثرة المتاعب –وكثرة المودة والشجاعة... وعيناه أكثر حذقاً في النظرات والفراسة... ثم إن ابن الصبرة متقدم بالسن، ومتقدم بالكروم والأرض... كرومه مشهود لها بالمواسم ومشهود لمحراثه بالمتانة، ولبقراته بالجلد على الحراثة... أما ابن الحمودة فكرمه صغير، ومحراثه ليس من المتانة بمكان، كمحراث جاره وصديقه وصديق أبيه...

ولد أبي يوسف أكثر تعاسة من الاثنين... قامته مرتفعة عن سطح اليابسة ارتفاعاً مقبولاً، لكنها ليست مرتفعة عن سطح زوجته المصون (رفيدة)... وقد أدركه الانحناء الشديد، فصار يمشي مكباً كمن أضاع شيئاً ثميناً وراح يبحث عنه... ووجهه كانت به ملاحة، ليست كملاحة أبيه، فجاءت عليه وعلى ملاحته الأيام السوداء وصرخات زوجته الصخابة، كانهدام جدار عال، إلى منخفض بعيد القرار...

ولد أبي يوسف باءت، عيناه بالفشل، فلا نظراته حاذقة ولا فراسته طيبة، ومحراثه بائس... ودأبه على العيش، ودأبه على الصدق حماه من ألسن الجيران، وحماه من قطيعة أصدقاء أبيه.

وقف الثلاثة ابن الصبرة على يسار الجدار... وابن الحمودة أسند ظهره إلى جذع شجرة الزيتون، أما ولد أبي يوسف بقي واقفاً مسنداً بعضاً من ظهره إلى جدار مصطبة بيت ابن الحمودة... وغبش المساء بدأت خيوطه تزداد وتتسع كعباءة فضفاضة بدأ النّسَّاج نسجها.. ، والأسراب لم يخفها المساء المقبل... بل زاد سعيها إلى أعشاشها، وكأنها تقول رسالات عجولة البوح ثم تعود إلى مخابئها وقشها.

قال ابن الصبرة:

–ضوء ابن الأحمد تأخر يا ابن الحمودة؟؟

–يكون في أرضه العالية...

شارك ولد أبي يوسف:

–رأيته يذهب ورأيت زوجته وراءه...

www.alkottob.com

سأل ابن الصبرة:

-وهل حمل الكيس الأبيض؟

ضاع السؤال، لأن صوت سمر وأختها رباب وأخيها قرميد جاء من جهة بيت يوسف بوحمود، وبانت قاماتهم وهم قادمون وبان معهم سلمان ولد يوسف بوحمود وحسان ولد كريم...

ومن جهة ثانية سمع صوت زوجة كريم وهي تدعو دجاجاتها للبيات: بيتي... بيتي... بيتي... وكانت الدجاجات تسعى من جهات العشب والحفاف باتجاه صوت زوجة كريم، وحبات القمح التي نثرتها إلى جوار الدجاجات...

صوت زوجة ابن الحمودة جاء أقوى وأكثر ضجيجاً، لأنها لم تنادِ على دجاجاتها، بل نادت على زوجها، ومن تنادي على زوجها لا بد من أن ترفع صوتها، أكثر من الزوجة المنادية على دجاجاتها، لتقبل على حبات القمح، أو لتأوي إلى بيتها، خوفاً من أذى ابن آوى.

***

صعدت شياله الدرب المؤدية إلى الحارة (الفوقانية) حيث دكان يوسف بوحمود... شعرت بالتعب من ثقل خوفها وقلقها، ونال من عزيمتها حر الهاجرة الشديد، لكنها لم تسترح عند أحد، ولم تنظر إلى أحد، وتابعت سيرها صعوداً، وفي يدها اليمنى حقيبة عادية، وضعت فيها حاجاتها الضرورية...

حين وصلت إلى أعلى الحارة، أحست بالارتياح ممزوجاً بالمخاوف... وقد زاد من مخاوفها ومن ارتياحها أن رأت يوسف بوحمود أمام دكانه... وراقها أن ترى إلى جوار الدكان شجرة توت كبيرة...

دكان يوسف غرفتان وفسحة تغطيها الأغصان، وإلى جوار الغرفة الشمالية رفعت ألواح من التوتياء الصدئة، ركزها يوسف على العيدان... وفعل في السقف كما فعل في الجدران... مدّ عيداناً طويلة تصل بين رؤوس العيدان المنصوبة وجعل عليها ألواحاً من التوتياء... في الجانب الغربي داخل ألواح التوتياء، جلب يوسف الحجارة ورتبها وطيّنها على شكل مقعد.

في الجهة المقابلة للمقعد الحجري المطين، أحضر يوسف الرفوف الخشبية،

www.alkottob.com

ورتبها فوق بعضها، تاركاً بينها مسافات متفاوتة... وأمام الرفوف رفع لوحين خشبيين متقابلين عطاهما بلوح ثالث، ليشكل حاجزاً بين أغراض الدكان والمشترين.

هذا هو دكان يوسف، الذي يستقبل فيه المشترين وعشيقته، التي ملأت حياته باللهفة المحاصرة بالقلق والمخاوف... وكيف لا يكون القلق صديقاً للهفة والحب؟

وصلت شياله، ويوسف واقف أمام باب الدكان... وما أن رآها حتى تهللت ملامحه وانشرحت أساريره فغاب عنها بعض الغيظ... لوت شياله خصرها، فبانت كياستها وعجيزتها الرشيقة رشاقة تبعث على الدهشة والاهتمام الزائد، من يوسف عشيقها المعذب بالمخاوف والشقاء...

سوّت وقفتها والخوف بعينيها نشيد لجوج البوح والحكايات... وهذا ما أسكر يوسف حتى ضاع في ذهول شفيف...

ظلت شياله على وقفتها، وظل حسنها المطعون بسكين القلق يحرّض نفس يوسف على السرور والبهاء... وأبقت منديلها الرشيق على رأسها رغم شعورها بالحر، خوف أن يبن شعرها المجدول، كأنه عرس للريح، شتّت جماعاته وتفرقت جماعات جماعات...

رفعت شعرها المنسرب على وجهها بكلتا يديها، فبان جمالها: وجه مورد نضر... وعينان ناعستان، تضجان بالبوح والأنوثة ، وشعر طويل مسترسل الضفائر، وشفتان شهيتان كصوت نبع منسرب من صخرة عالية، ونهدان نافران أناقتهما بادية إلى حد يثير اللهفة... وخصرها واضح رغم امتلاء عجيزتها وسائر جسمها. عاين يوسف شياله ملمحاً، وراح يخاطب نفسه:

"شياله ظلمت بزواجها من واحد جاهل وظلم جمالها".

شياله شاهدت عيني يوسف، وهو يعاينها، وكادت أن تسمعه، وهو يحكي لنفسه: ضاع الجمال وضاعت الكياسة، والعطش أتعب الوردة.

قطع يوسف تأملات شياله بصوته الرنان:

-نعم يا شياله ماذا ستقولين؟؟

لم تجب شياله، وبقي الحسن رسولها... وبقي الصمت يزيدها ألقاً على ألق...

www.alkottob.com

عاد يوسف إلى الكلام:

–في عينيك كلام يا شياله؟؟

–الكلام الذي سأقوله ليس سراً عليك.

–ما هو هذا الكلام؟!

الصمت من جديد هو كل الكلام الذي تقوله شياله ويسمعه يوسف، وكلاهما يفهم الكثير الكثير من كل رفة هدب أو حراك عين، أو ابتسامة أو عضة شفة.

***

شجرات نبع الساقية تلوح للقادم إلى الحارة، كعلامة تهدي التائهين.

وقد أزعجها صوت ودخان الموتور، الكبير الذي وضعه ابن الحسن على مقربة من النبع.

ابن الصبرة أحس بدخان الموتور، وضجيجه، وحاول أن يقول رأيه، لكن الندم سد حلقه وعذّب صوته.

زوجته لم تجادله بشأن الموتور وسقي أرض ابن الحسن، لأنها عرفت أن غيظاً صعباً استبد به، وهو لا يقدر على دفع الغيظ.

عرفت أنّه مغتاظ من حال النبع، وخافت من أن تفاتحه بالكلام، الذي قالته لها زوجة ابن الصالح... خافت من أن تثور ثورته عليها ومن غضبه.

وجد ابن الصبرة نفسه مأخوذاً بحديث أبي يوسف، الذي يتذكره كلما شعر بالغبن:

انتفع من النبع ما أمكنك، واحرص على أن يبقى نقياً عذباً... ولا تنسىَ أن توصي الجيران بالحرص...

بقي الضجر يحاصر روح ابن الصبرة، وهو ينظر إلى دخان الموتور القريب من النبع ومن بيته... استبد به شعور عارم بالنقمة على ابن الحسن...

***

www.alkottob.com

صوت سمر جاء مفاجئاً كظل سحابة أفرح خيال الصيف، وتبعه صوتا رباب وقرميد.

لم يجد صوت سمر مشقة في الوصول إلى سمع ونفس سلمان ولد يوسف بوحمود، بل وجد السبيل يسيراً... تجاوز السلم الخشبي المتصدع، ودخل الباب... وأخذه من أحلامه...

فرح سلمان لظفر عينيه وروحه برؤية سمر، وارتبك لغياب أمه، لإحساسه بأنه سيفشل بالترحيب الجيد،وسيفشل أكثر بالضيافة. وهذا الفشل أمام حبيبته تحديداً يربكه ويتركه مضطرباً، تتجاذب أنفاسه جاذبيتان: جاذبية الدهشة والحب والفرح، وجاذبية الاضطراب والشعور بالفشل في الاحتفاء اللازم بضيوفه.

هبط درجات السلم... وهو لا يعرف كيف يستقبل سمراً وأختها رباباً وأخاها قرميداً، وكيف يصافحها، لكنه ما أن وصل إلى الفسحة التي أمام البيت، حيث وقفوا، حتى بدأ الارتباك يتبدد قليلاً... ووجد أن الأفق مزدان بخفق الأجنحة وأغصان الأشجار...

ابتسم قبل أن يصل... وردّت سمر على ابتسامة بابتسامته مثيلة... دخلت النشوة إلى أعماقه، مدّ يده أولاً إلى سمر، صافحها، وسألها عن نفسها وحالها وعن حياتها... ثم انتقل إلى رباب التي لم تبخل عليه بابتسامة لا تنفع محباً أو كارهاً.

ابتسامتها تشبه حالة الزكام القوي الذي تتجلى علاماته عطساً... هكذا ابتسامتها عريضة كحدوة أم يوسف... وأسنانها لا تودعها بقايا الأطعمة... وهذا عهد بين أسنانها وبين الطعام لا تقطعه...

أما قرميد فلم يبتسم، ولم يتكلم واكتفى بأن عرج عرجاً هادئاً باتجاه الجدار، ليجلس على الحافة المنبسطة كابتسامة أخته (عالية الجودة) رباب.

قالت سمر بعد أن استقرت عجيزتها المتناسقة، الممتلئة امتلاءً لا عيب فيه ولا اعوجاج، ولا مهانة... عجيزة تنم عن رصانة واتزان وإتقان، جلست قريباً منها رباب وقد بان اعوجاج عجيزتها وسوء طالعها ونازلها، وكأنها مزيج من حبات البطاطا المفلطحة المهترئة وغير المهترئة.

قالت سمر، وقد توجهت إلى سلمان، ولهفة حنونة تداعب نفسها:

–بيتكم عال، وهو في مدخل حارتنا، ويطل على الكروم وعلى الحارة (التحتانية) وعلى حارة الساقية.

www.alkottob.com

رد سلمان ولهفة مثيلة بلهفة سمر، تشغل نفسه:

–وبيتكم جميل، ويطل على الدرب الذي يصل بيوت الحارة العتيقة بمصطبة شجرة التوت وبيت أبي يوسف... ألا تتذكرين المصطبة والبيت وأيام أبي يوسف...

وشجرات التين. التي في أرض كريم كانت تلمنا أغصانها وثمارها... وكنا نرجع بها في (السلة القصبية) ونطعم منها أبا يوسف؟...

–كيف لا أتذكر، وقد جلسنا على المصطبة كثيراً، وسمعنا حكايات أبي يوسف والجيران؟... تابع سلمان حديثه، واستمرت لهفته، واستمر شعوره طافحاً بالشوق والحب وقد أخذه الكلام عن بيت ابن الأحمد، وكأنه بحديثه هذا عن جمال البيت، يؤكد جمال سمر، وحبه لها:

–بيتكم محاط بالأشجار وعال ويشرف على النبع والساقية والشجيرات العالية... وأنا أراك أثناء جلوسك أمام البيت... وأراك حين تصعدين إلى السطح..

–لكنك لا تزورنا... هي يعني هذا أنك لا تذهب إلى بيتنا إلا حين يكون حسان ولد كريم؟؟...

–... ...

لم يجب سلمان... وترك الفرصة واسعة أمام طائر البهجة الذي أحسه يخفق ملء روحه... وأبقى لدمه أن يتدفق لهوفاً عجولاً حاراً مشغولاً بكريات العشق والتشوق.

قرميد الذي بقي على الحافة أحب أن يشارك:

ـ بيتنا أعلى بيت في الحارة العتيقة، وهو عالٍ... ومثله بيت أهل سلمان، ودكان والد سلمان كان مكانه أجمل، حين كان عند بيت الجبيلي.

رباب تمنت أن تشارك وقد حقّقت أمنيتها، وليتها لم تفعل، لأن أسلوبها بالحديث شبيه بأسلوبها الأرعن في تناول الطعام...

قالت رباب:

ـ البيت الخشبي الصغير الذي بناه أبي بين أغصان شجرتنا الكبيرة عالٍ، ويشبه بيت دجاجات أم يوسف...

ضحك سلمان وسمر ومثلهما فعل قرميد، لكن ابتسامة قرميد بريئة براءة تامة من السعادة... سلمان ظل يعاين سمراً: يقيسها بعينيه، ثم يطرق إطراقاً سريعاً

www.alkottob.com

هرباً من حدة الشوق التي يراها في عيني سمر وملامحها... تزداد حمرة وجهه، كالمصفوع. ولعل الاشتياق شديد بأسه كالصفع، وقد يكون أشد.

(سمر) لم يفقدها زواجها المهزوم، جمالها... آذاها في عيون الجارات ليس إلا... نظرات زوجة ابن الحمودة وزوجة كريم وأم سلمان تغيرت تغيراً طفيفاً تجاهها، مناقضاً لما سبق، وأحياناً يتبعن النظرات المليئة بالأسئلة المزعجة بكلمات بائسة ومشلولة، ومصابة بالصرع:

رغم هذه النظرات والكلمات المؤذية، بقيت سمر من الجميلات في الحارة العتيقة... والحارات الأخرى، وقد علّمها عيشها، عند أختها (جوهرة) في المدينة، أن تتفنّن في اللباس تفنّناً متفوقاً، على تفنن بنات حارات (شجرة التوت)... وعودتها إلى سلمان ليست تعبيراً عن فشل ذريع أو غير ذريع... إنها وجدت حبها له باقياً في قلبها كالقنديل المعلق في غصن شجرة التوت، فرجعت إلى القنديل، ونفخت فيه من أنفاسها فازداد ضياؤه..

في بادئ الأمر ارتفع الخوف جداراً بينها وبين سلمان...ثم انهدم الجدار بالتدريج...

***

. الغريبة اختفت يابن الصالح... هل تعرف عن أمرها أي خبر؟...

. هل عشقتها... حتى أعرف عن أمرها الأخبار؟...

ـ بدأت تتفلسف... يابن الصالح... الإنسان لا يعرف الأخبار إلا إذا عشق؟...

. العشق يزيد الإنسان معرفة.

. ألم أقل لك: إنك بدأت تتفلسف، ولكنك لست أهلاً للتفلسف.

دار هذا الحديث السريع بين ابن الصالح وزوجته وهما جالسان، تحت أغصان السنديانتين القديمتين:

زوجته منشغلة بفرز (الزؤان) من القمح، وقد اتخذت من قطعة القماش السميكة مطرحاً لعجيزتها الشقيانة إلى حد المهانة... قلما تستريح زوجة ابن الصالح من العمل في الأرض أو في البيت... واستراحاتها ليست كالاستراحات... فهي بدل أن تجلس مثل زوجها، على الكرسي الخشبي المشبوك بالخيطان

www.alkottob.com

البيضاء المتينة بعض الشيء... تفرش القماشة السميكة وتلقي بعجيزتها عليها، وتباشر عملها إما في فرز الزؤان من حبات القمح، وإما بشبك أوراق التبغ في خيطان ناعمة... أو تهتم بشبك ثياب زوجها أو الأولاد.

سألت الزوجة زوجها عن السنديانتين القديمتين.

. كم عمر هاتين السنديانتين... هل تعرف يابن الصالح؟..

. لا أذكرهما إلا هكذا يا ست الحبايب.

. التفلسف زائد عندك اليوم؟...

زوجة ابن الصالح تقدر أن الكلام في شأن الغرام أو الغزل ضرب من التفلسف، أو ضرب من المزاح. وهو غير ضروري في الحياة، بل زائد وكمالي كصباغ الشفاه أو كحل العينين.

وهي أكثر طولاً من جارتها زوجة ابن الصبرة، لكن ضربات الحياة وشقاء الأيام لم يترك طولها على حاله... انحنت قامتها قبل الأوان، كما أخبرتها قريبتها أم يوسف في أكثر من لقاء: (أنت ظلم جمالك وكياستك... لكن مافي اليد حيلة).

كلمات أم يوسف هذه هدفها فتح باب الحديث، وتراها أحياناً تفتش عن أخبار مدهشة وغريبة لتبدأ بها أي حديث.

بيت ابن الصالح لا يفصله عن بيت ابن الصبرة إلا الدرب الضيق المؤدي إلى بعض بيوت حارة الساقية... والصوت ينتقل من المصطبة إلى المصطبة دون عناء.

سمعت زوجة ابن الصبرة ما قالته زوجة ابن الصالح عن غياب (الغريبة) زوجة ابن الحسن... وتمنت أن تجتاز المسافة الوجيزة إلى بيت ابن الصالح، لكنها لم تفعل، لأنها شاهدت زوج جارتها، فعرفت أنها لن تتحدث مع زوجته كما يحلو لها في حضوره.

ثم إن فتوراً وصلَ إلى حد الغليان، أصاب علاقة زوجها بابن الصالح، جراء التعاون الملغوم بين ابن الحسن وبينه.

صوت أسعد الآتي من جهة بيت ابن الأحمد قطع ما اتصل من حديث ابن الصالح وزوجته، وأوقف تمنيات زوجة ابن الصبرة... جاء كرسالة حملتها النسائم فبلغت أغصان شجرة التوت... والشجرة الكبيرة التي أمام بيت ابن الصبرة... وأغصان السنديانتين:

www.alkottob.com

(سمر يا أحلى الصبايا... حياتك كلها صارت خبايا، أبوك السيد الفاضل في كل البرايا...).

قال ابن الصالح، وقد أذاع صوت أسعد حالاً من السرور في وجدانه:

. ابن الأحمد في البيت يا ست الحبايب.

. هل شاهدته؟..

. لم أشاهده، لكنني سمعت مديح أسعد له.

. لن يطول على أسعد الدرب، حتى يصل إلينا.

. أسعد يمدح ابن الأحمد، ليأكل عنده... وهو لا يمدحه إلا إذا كان جائعاً... ويمدح أم يوسف خوفاً من سياط لسانها، التي لا ينجو منها، ثم إنه يؤمل عندها فنجاناً أو أكثر من الشاي.

عاد صوت أسعد إلى الغناء (المشلع) كباب بيت بقرات ودجاجات ومؤونة ابن الحمودة:

(سعد الناس اسم سعد

وسعدي اسمو بوقحيفي

سعدن يمشي لقدام

وسعدي يمشي خليفي).

قال ابن الصالح:

. هذا الغناء حفظه عن قريبه (عبدو الشاعر).

. (عبدو الشاعر) ألا يفكر بالرجوع إلى حب شياله؟...

. البعد يخلق جفوه... وشياله وعبدو فرقتهما الأيام فصار كل واحد منهما في دنيا... ثم هي الآن . كما سمعت أسعد يقول . تحب يوسف بو حمود.

ربطت الدهشة لسان الزوجة، فلم تقدر على الكلام فعاد الزوج إلى التأكيد:

. شياله ست الحبايب عن حق وحقيقة... وهي تستحق كل خير.

. لماذا لا تقدم لها الخير يا سيد الحبايب؟...

. العين بصيرة والكف قصيرة...

ـ لست هيناً يابن الصالح... ولولا أن الحياة بخلت عليك، لكنا شفنا منك الأمور العجيبة... (تنكة) أسعد لمحت على كتفه، وهو يدخل إلى بيت ابن الأحمد

www.alkottob.com

عبر الدرب المغطى بالأغصان، و المحاط بشجرات الرمان والزيتون والمشمش...

فعرفت الزوجة وعرف مثلها زوجها أن أسعد بدأ رحلة البحث عن الزيت، لأن الموسم موسم زيت... سمر صارت تهرب من وجه أسعد، كرهاً منها لأي خبر عن زوجها وعن زواجها المنصرم انصراماً أكيداً وتاماً.. هو رغم أنه جدير بابتكار الأخبار والأحاديث، المتعلقة بالزواج والطلاق، صار يتجاهل نقل أي خبر يتعلق بزواج سمر وهروبها وطلاقها....

قبل أن يبلغ المصطبة المطينة بعناية، والمغطاة بالأغصان، كوجه صبية، جدائل شعرها تتدلى على وجنتيها وكتفيها...

قبل بلوغه المصطبة، رفع صوته بقصيدة قديمة، سمعها من أبي يوسف والجبيلي... وسمعهما يقولان إنَّ أحمد السعيد والد ابن الأحمد هو علّمهما إياها:

(الحمد لله ما أبدى الصباح سفور

حمداً مزيداً على عدد الحصى والرمل).

وجه ابن الأحمد على خلاف دائم مع البشاشة والانشراح. ومن الصعوبة بمكان، على واحد كأسعد أن يجره إلى السرور، لكنه ضمن أخيراً الترحيب نصف اللائق: إذ نادى ابن الأحمد على زهوة أن تطعم أسعد وأن تسقيه الشاي. وهذا هو مطمحه، وغاية غاياته في هكذا لحظة...

قال ابن الأحمد:

. من أين جئت يا أفندي؟...

(أفندي) أعجبت أسعد، وراقت لسمعه، رغم جهله الأكيد بمعناها ودلالتها، وابن الأحمد لم يقصد بها التمجيد، بقدر ما أراد بها السخرية من حظ أسعد...

أراد أسعد أن يجيب على السؤال فأحس ببرودة مؤذية تسري في عجيزته الأسيانة أسى كبيراً، نط على الكرسي كالملدوغ... وكاد يسقط أرضاً من كثرة النط، لولا أن هدّأ من نطه ابن الأحمد:

. مسامير الكرسي لامست قفاك يا سيد أسعد.

رش الكثير من اللعاب، وهو يقول كلماته المبعثرة كأحلام حصَّادٍ، أتت ريح هوجاء على حقله وسنابله:

. أنت خير العباد، وبك الرشاد يا سندباد...

ابن الأحمد هم بالضحك، لكن أكداساً من الأحزان والتعاسات وقفت في وجه

www.alkottob.com

ضحكته.

لم ينسَ أسعد السؤال السالف، عن الجهة التي قدم منها:

قرية (النبع)... عطشت يابن الأحمد... قل ماء النبع وانقطع عنها الأسياد الكرام أمثال أحمد السعيد... وعبدو الشاعر، يفكر بالرحيل إلى بلد بعيد... وبنت قريبتك المتزوجة هناك، التي كانت سبباً في أذيتك، من حيث لا تدري، كما قال لي زوجها... بنت قريبتك سيتزوجها ولد أبي يوسف...

. هل تزور أبا يوسف في بيت ولده؟...

. هو يذهب إلى بيت ولده البكر... ويترك بيت ولده في قرية (التين).

. زوجة ولده الثاني تقسو على الولد وعلى الأب.

. وأم يوسف كيف تسمح لها بذلك؟...

حضرت زهوة وفي يديها طبق القش، يحمل صحوناً، فيها بعض البطاطا والبندورة والزيتون... فنسي أسعد أن الحديث الدائر بينه وبين ابن الأحمد كان دائراً... فانصرف بكل قواه، وما أقلها، إلى الطعام.

غفل أسعد عن قراءة مطلع قصيدة أحمد السعيد التي كتبها يتغزل فيها بشجرة التوت، وحبيبته:

(أيا شجرة أورقت أغصانها قدما
أسميك في أيامنا ليلى
أو أقول: أتت سلمى
من آذى غصناً أخضر اللمحات
من شجراتنا
آذى بنا الحلما
جذع عتيق أصله... من منبت عزت بدايته
من يجرح الجذع الأصيل
بخبثه وبسوئه... هو فاعل جرما).

انشغال أسعد بالطعام ألهاه. عن كل أمر وكل حديث... حتى لم ينظر إلى جهة الساقية أو إلى جهة شجرة التوت، التي أحبها، وجلس قريباً من جذعها... وشرب الشاي تحت أغصانها، وسمع أحاديث الأيام في حضرتها المزدهية

www.alkottob.com

بالحب، وصدح الطيور... وخفق أجنحتها.

وقد غفر ابن الأحمد لأسعد إقباله المجنون على الصحون، لعلمه الأكيد أنه قطع مسافات، غير قصيرة، دون أكل، ولأن ابن الأحمد كثير الشغف بالطعام، فقال لنفسه:

(الطعام ملذة الملذات... والجوع كافر لا يقتله إلا الطعام...).

***

درب البازار مكتظ بالمواشي والمارين... والجبيلي منشغل بالخروفين الكبيرين، اللذين اشتراهما من ابن الصبرة... وقد حاول أن يستذكر بعض الأشعار والأدعية، التي تعلمها من أحمد السعيد. خفف الخطو، أملاً منه ببقاء حذائه صالحاً للسير بعض الوقت، حتى يكون بمقدوره إصلاحه أو استبداله. (بنطلونه) أو سترته (الجاكية) العجيبة... و(المعطف) الدائم لم يخف خرابه... لأنه لو حصل الخراب في البنطلون فتحته لبس الجبيلي (بنطلوناً) أو سروالاً صوفياً أو قطنياً، فلا يقدر الخراب أن يخترق كل الثياب المتراكمة فوق بعضها...وحال (الجاكية) كحال (البنطلون) مدعمة بألبسة أخرى تكفي لعدة أشخاص... ويعاونها في حماية (الجبيلي) من عوامل الطبيعة وغيرها، (المعطف) القديم، الذي أحضره معه منذ وقت غير قريب... وهو يسهب في الحديث عنه إسهاباً واسعاً، كما يسهب في الحديث عن أيام أحمد السعيد... وعن ملكات (سبهه) في إعمار التنور وتطيينه، وهندسته...

و لا ينسى أن يشرح مطولاً عن فضائل (يوسف بو حمود) صاحب الدكان الذي جاوره سنوات عديدة... وكذا أمره مع الجرة الفخارية الكبيرة وغطائها الخاص بها.

(الجبيلي) يحب أن يمجد الحاجات التي تخصه، ولا يعنيه كثيراً أنها حاجات ذات نفع، أو ليست نافعة.

اجتهدت خطواته، من حيث لا يريد... وهل تقدر خطواته أن تكون غير مجتهدة، وقد درّبتها الدروب الوعرة والأحفة الصعبة، والتلال... ودربها، أيضاً، سعيه وراء طيور المواسم... (عيدان الدبق) التي يصنعها بعناية خاصة، ومهارة ليس كمثلها مهارة ابن الأحمد ولا مهارة ابن الصالح...

www.alkottob.com

ازداد خربان حذائه، الذي أفاض في الحديث عن متانته وجودته وحسن مقاومته للحفر والأحجار.. وهو قد يكون محقاً بعض الحق، في حديثه عن متانة الحذاء، وما هين على حذاء أن يعيش في قدمين دروبهما تعب ومشقة... وخطو صاحبه خطو عنيف لا استقرار فيه...

وصل البازار... وزحام المواشي... والمقبلين على البازار إما لبيع خرافهم أو بقراتهم وإما للشراء.

الزحام في ذروته... فضاعت عليه اللحظات، فأراد الذهاب إلى بيت ولد أبي يوسف القريب أملاً منه أن يجد صديقه وجاره... فيهنأ به الحال بعض الهناءة ويحدثه عن شؤون الطير والرعي.

شعرت أم يوسف بالضجر، إذ وجدت (حدوتها) في غير مكانها... وقرّرت على الفور، أن تجد تدبيراً أكيداً، لحماية الحدوة واحترامها... ففكرت بأن تربطها في قائمة السرير، المخصص لها ولأبي يوسف.

في هذا الوقت العصيب، وصل الجبيلي... وقد نادى من بعيد:

. يا صاحب الشجرة العتيقة... يا جار الرضى... يا صديق العمر..

سمعت أم يوسف النداءات لكن انشغالها بـ(حدوتها) ألهاها عن الرد على النداء، أو عن تنبيه زوجها، وإيقاظه...

عادت النداءات:

. يا أبا يوسف... يا فالح الأرض وزارعها.

يامن رعى العهود وقاوم البرد والمطر والرعود.

يا صاحب المصطبة المحاطة بالأغصان...

و(جرن القمح) المصان... أنت عليك الأمان.

هذه الكلمات لعل الجبيلي حفظها... وقد رفع صوته وهو يقولها، فصدع الفعل وكسر الفاعل ورمى المفعول به أرضاً... وهذا لا يهمه ولا يعنيه.

مايهمه في نداءاته وكلامه المشروح وغير المشروح أن يسمع صوت أبي يوسف أو زوجته... أي أن يتأكد من وجوده...

أيقظت أم يوسف زوجها... وقد يكون أدركه الصحو، إذ جاءه الصوت العالي والنداءات، فعرف أن الجبيلي صار قريباً من البيت البئيس... التعيس كآمال أسعد، أو كـ(عيدان الدبق) التي يعدها ابن الصالح.

www.alkottob.com

همة أبي يوسف، رغم السنين . ليست من الضعف بمكان، إذ يشده النداء شداً، فينهض لا يعوزه الاتكاء على السرير، أو على (عكاز)، حتى إنه لا يقبل على عكاز، لأنه يعتبر مصاحبة العكاز عنواناً للضعف، وعلامة على تهاوي نجم الحياة...

كرسيان أو ثلاثة... ومقعد خشبي شاخت قواه، قبل أن تكون فتية. أنجز المقعد ولد أبي يوسف، فجاء مهزولاً، ركيك الحال، كغزله وغرامه.. أربع قوائم وصلت بأربع خشبات... ركزت بالمسامير... ثم مدت عيدان وخشبات أخرى... فكان المقعد... وقد أسهمت أم يوسف في إكمال هندام المقعد... جمعت ما وقعت عليه يدها أو عينها، من خرق ومزق قماشية أو غير قماشيه.

أبو يوسف لا يصحو وحيداً... تسبقه شجرة التوت: تتراءى له على حالها... أغصانها في خضرة عامرة وجذعها راسخ في تراب المصطبة... وفي فضائها الطائر الكبير... وأجنحة لا ينقطع خفقها، وكأنها تلاعب النسائم...

ثياب أبي يوسف، رغم بؤسها، تبين عليها علامات الأناقة... سروال أبيض واسع، وعباءة تظهر عليها ابتكارات وإبداعات أم يوسف، في شبك أطرافها أو وسطها... خيوط سوداء تختلط بخيوط بيضاء أو بنية أو غير ذلك... المهم عند أم يوسف في أمر (الشبك) أن تجد خيطاً أي خيط، أكان ملائماً أو غير ملائم لتستخدمه في رتق ما انخرق من ثياب زوجها...

وقد يتيسر لها أحياناً خيط عريض، لا يصلح للثياب، إذ هو أساساً لخيط الأكياس... فتستفيد منه في (شبك) العباءة، أو السروال...

وصل أخيراً (الجبيلي) الصانع الماهر لعيدان الدبق، والراعي المميز للخراف والبقرات... والعارف بشأن الطير معرفة واسعة... وكيف لا يكون واسع المعرفة بشأن الطير... وقد تربى على يد أحمد السعيد... واستفاد من علمه ومن علاقته بالحياة والطير...

ربط الخروفين في النافذة الوحيدة للبيت... ولم ينسَ أن يجمع لهما بعض الحشائش... والمفارقة المريرة قليلاً. أن الخروفين المدللين. مداهما يشمل (حدوة) أم يوسف، التي فكرت بربطها، ولم تكمل فكرتها بعد.

دخل الجبيلي، فرحب به أبو يوسف ترحيباً طيباً، دون مظاهر الترحيب والاحتفاء... إذ لا موقومات في بيت ولد أبي يوسف للترحيب والاحتفاء وقد بادر الجبيلي على عجل إلى الجلوس على المقعد الخشبي (الموقر) فألقى بعجيزته

www.alkottob.com

الأفقية... ولم تعبأ العجيزة المترامية، برؤوس المسامير، لأن ما يلبسه من ثياب يحتاج إلى مسمار طويل، حتى يصل إلى ما تيسر من لحمه أوعظمه.

تنهد أولاً... ثم ألقى نظرة غير باردة على البيت فالفى البؤس في كل ملمح... لكنه لم يدهش، لأن هذا الواقع ليس غريباً عليه، ثم وجه نظراته... إلى عينيه وحاجبيه الأبيضين.

أم يوسف زمت شفتيها زماً محكماً، كمن يبحث عن قبلة مفقودة، قبل ولادتها... وقد رحبت بالجبيلي، وسألته عن أخته:

. كيف الأخت؟..

. منشغلة بتنور زوجة ابن الأحمد...

. سبهة تعرف شغلها... ولا تحتاج لأحد يدربها...

اطمأن الجبيلي، إذ لاقى الرضى عند أم يوسف تجاهه، ولم يلاقِ النفور... وقد أشعره ترحيبها بحال من النشوة... وقد أخبر بفرحته هذه صديقه وجاره:

. أم يوسف مرتاحة لحضور فخامتي...

قال كلماته هذه، بعد أن تركت أم يوسف الغرفة، باتجاه المطبخ المشرئب بعنقه كطائر نعام... فستانها لا يصل إلى الأرض، ولو فعل لكنس الكثير من الغبار والحاجات التي لا نفع منها ولا ضرر...

قال الجبيلي لأبي يوسف:

ـ هل سمعت مثلي أن ابن الحسن تعاون مع ابن الصبرة... وبدأ يسقي الأرض من النبع...

. كيف يصعد ماء النبع إلى الأرض؟

ـ الموتور الذي أحضره ابن الحسن هو الذي يقوم برفع الماء إلى أعلى الأرض.

. وابن الصالح هل يسمح لأحد بأخذ الماء وتخريب النبع؟..

سمعت ابن الأحمد، وهو يقول ليوسف بو حمود:

ـ حصلت خصومة كبيرة بين ابن الصالح وابن الصبرة... وتضاربا بالعصي... وتبادلا الشتائم الصعبة...

. ابن الحسن لم يتعلم إلا الأذية..

www.alkottob.com

. وولدكم لماذا يبقى في خدمته هو وزوجته؟

تنهد أبو يوسف تنهيدة طويلة... ولم يتبعها بأي كلام، لأن أم يوسف عادت بالإبريق والفناجين... وهذا ما ألهى الجبيلي أيضاً عن الكلام.

لاحت لعيني أم يوسف (حدوتها) وهي تعاني من (دوس) الخروفين... فاستاءت واغتاظت ونادت على الجبيلي، وهو منها قريب:

. كيف تسمح لنفسك بربط الخروفين قرب (الحدوة)؟؟..

نط الجبيلي نطاً محكماً... وجمع كل نفسه واتجه لا يلوي على أمر، إلى حيث (الحدوة) والشباك الذي ربط فيه الخروفين...

أبو يوسف ضحك ضحكته المعهودة، الناعمة... المطمئنة في أكثر الأحيان... ومال إلى زوجته وهدّأ من روعها وطلب منها برفق وتؤده، أن تصفح عن الجبيلي الذي قام بنقل الحدوة إلى مكان أبعد.

ساعد في الصفح والغفران أن صوتاً أو أكثر اقترب... فقدّرت أم يوسف أن القادمين إما خطيبة ولدها أو الخطيبة وأهلها.

والد حبيبة ولد أبي يوسف التي جمعتهما المصادفة...والدها قريب أسعد والجبيلي.

وأمها قريبة ابن الأحمد... بل هي أخته من أبيه، لأن أمها هجرت قرية شجرة التوت، بعد أن غاب (أحمد السعيد) وضاقت بها الدروب وسبل الحياة، على حد تعبيرها.... وحسب تقديرات زوجها، المغلوب على أمره من قبل الدنيا ومن قبل زوجته، ومن قبل قريته (قرية النبع العالي).

شاءت المصادفة الطيبة أن يجتمع الأقرباء بعد طول تفرق وشتات... قال والد الحبيبة وقد رأى قريبه الجبيلي:

. ألستَ الجبيلي، الذي ترك القرية منذ أربعين عاماً تقريباً؟؟...

. نعم يابن (العامودي).

قال الأول كلماته بشوق... وكذا أجابه الجبيلي... وقد أكّدَ مودته تجاهه إذ ذكر اسم أبيه الراحل عن الدنيا منذ عهد قريب.

زوجته لم يرق لها أن زوجها أعلن المودة تجاه الجبيلي، وهي التي تعرف أنه بائس الحال وقليل المال، وهي التي تعرف أنه اشتغل عند أبيها، في الأرض العالية، التي أخذها ابن الحسن... حبيبة الولد، لم تقل أي كلام ودود أو كاره...

www.alkottob.com

واكتفت بإلقاء تحية عوراء كعينيها، اللتين لا ينقطع غمزهما، حتى يظن الجاهل بأمر الغمز والعيون بأنها تغمزه حباًوهياماً. أم يوسف ازداد زمها لشفتيها، وازداد عبوسها على عكس زوجها المشرقة نفسه... نسيم غير عليل يلعب بصوف خروفي الجبيلي... و(الحدوة) على بعد... آمنة... وشجرات لاهوية لها، تفصل أرض ولد أبي يوسف عن أرض أهل الحبيبة... البازار البعيد قليلاً لا تهدأ ضجته: المزيج من أصوات الآتين من القرى القريبة... وأصوات (الدواب) المستاءة من بقائها في هذا الصخب والضجيج...

(الدواب) تسمية يطلقها الجبيلي ومثله يطلقها ابن الصبرة وابن الصالح وأبو يوسف على جميع الحيوانات... ولعل هذه التسمية ليست وقفاً على قرية دون أخرى.

نسي في زحمة الحديث والأخذ والرد والذكريات البائد عهدها... نسي الجبيلي شأن الخروفين والبازار... وأخذ بالكلام حتى أشرقت في نفسه بوارق أمل، كان أغمدها عمره المرهق الشقيان، المزدحم بالمتاعب والخيبات...

والدة الحبيبة تشبه أم يوسف إلى حد بعيد: فمها معروف بالزم... وشفتاها كأنهما هاربتان من قبلة نارية... أو قبلة هي بمثابة (العضة)... وملامحها إرثهما من العبوس، أكثر من إرث (حدوة) أم يوسف من العناية.

ثوبها متماسك، رغم بعض الرقع المشغولة بشيء من الدراية... وشعرها ليس مسترسلاً ولا طويلاً كشعر (شياله) لكنه خير من شعر أم يوسف جمالاً وحسن تسريح. وهي تلبس منديلاً كأم يوسف... و(حدوتها) كاد الهلاك يأتي عليها، حالها كحال حذاء (الجبيلي).

استمرت أم يوسف في تقديم الشاي لضيوفها، وقد عاونها في إنجاز أمر الشاي صباً وتوزيعاً (الجبيلي) فأراحها من نقل الفناجين الكبيرة، التي حملتها معها من البيت الترابي الذي هجرته وزوجها مرغمين.

(الفناجين) المزخرفة هي مدار اهتمام أم يوسف بعد (الحدوة) مباشرة، إذ تسهب في الحديث عن ندرة نوعها، وعن متانتها، وعن قدمها... وعن منشئها... وكيف اشترتها...

حكايات وأحاديث لا تتعب أم يوسف من إعادتها عن (الفناجين).

أبو يوسف عرف أن زوجته ستباشر الحديث عن الفناجين ومزاياها النادرة، فعاجل إلى الحديث عن ابن الأحمد وعن دجاجات شجرة التوت... التي رآها ليلاً

www.alkottob.com

أثناء نومه، ورأى (ابن آوى) يداهمها، ليقتلها... لكن صوت ابن الأحمد فاجأه فأفزعه... ودفع به للهرب والسقوط في فخ كبير كان جعله قرب شجرات المشمس.

قال أبو يوسف:

. اليوم سأرافقك ياجبيلي إلى القرية.

عرف الجبيلي أن حالة شوق لهوف، تعيش في نفس صاحبه العتيق.

تأخر ولد أبي يوسف، على غير عادته وهذا ما أقلق الحبيبة، التي لا تتوقف عيناها عن الغمز، كداخل في مسابقة الغمز وعليه المران الكثير حتى يكون له الفوز.

ولعل جهل أبي يوسف و الجبيلي بالغمز، جعلهما لم يتوقفا قليلاً عند عينيها (المزيونتين بالعور) والمكحولتين كقدر مرّ على قفاه لهيب النار مراً عجولاً، فأبقى من لهيبه اسوداداً، إن لامسته الأيدي اسودت أناملها.

وكذا أمر حبيبة ولد أبي يوسف، كحل عينيها، قد تكون استعارته من قفا قدر، أو من أي قفا آخر. أم يوسف كالمصابة بالحمى... أو كالملدوغة، لا تستطيع الهدوء في حضرة أم الحبيبة... وهذا مرده إلى تشابه في طبعهما... وطفولة مشتركة... فكل منهما أعند من الأخرى.. وكل منهما نفسها حامضة وصعبة... وهذا التعبير أطلقته أم يوسف على أم الحبيبة غير مرة... أبو يوسف لم يعنهِ من أمر زوجته، وزوجة ولد (العامودي) إلا أن تظل الريح بينهما هادئة... وقد أقلقه حقاً أن تعصف الريح بينهما، لأنها إن عصفت، فلابد أنّ تمطر أم يوسف أم الحبيبة بوابل من الشتائم المشهود لها بها... بل هي صاحبتها... وبراءة الاختراع عائدة لها...

والد الحبيبة... نظر إلى زوجته فألفاها غاضبة الملامح، وهذا هو حالها ولهذا لم يطل إليها النظر... واجتهد بالالتفات إلى الجبيلي وإلى أبي يوسف الذي شغل خياله شجرة التوت والبيت... والحارة العتيقة.

وصوت الجبيلي الذي كسر حاجز الصمت عزّز خيال أبي يوسف وزاده قرباً من الشجرة والبيت:

"صاح ابن شعبان:

ريدوني لكم غني.

www.alkottob.com

بطل غناكم وهرجكم عني".

سأل والد الحبيبة:

. هل شاهدت عبدو الشاعر، بعد عودته من السفر يا جبيلي؟؟

. لا لم أشاهده...

. هذه الأغنية أسمعه يغنيها..

. عبدو الشاعر... يحفظ الكثير.... الكثير.

قال أبو يوسف:

. شاهدته منذ وقت عند أخته في الحارة العتيقة...

أم يوسف أدركها شوق لهوف إلى الحارة والدجاجات:

. هل تكون زوجة كريم احتفظت لي بالفراخ؟؟؟

***

حاول زوج سمر التعيس... الخسيس، حسب تصريحات أسعد... والأيام... حاول إعادة سمر إليه، فلم يوفق.

سلمان ولد بو حمود قلق لأمر سمر... وزارها ظهراً، بعد أن تأكد من وجود والدها في أرض الساقية... ولم يدخل من الباب الخشبي، بل جاء من كرم ابن الصالح ثم تجاوز السور...

رباب حملت (الصرة) المزودة بالغداء... وأمها قصدت زوجة ابن الحمودة، سمر ازداد ألقها... وازدادت أناقة... واجتهدت في متابعة القراءة... واستفادت من زواجها أنها صارت تعرف من تحب، ومن تكره...

وجوهرة علمتها كيف تكون الفتاة أكثر ملاحة في عيني عشيقها أو غيره...

وصل سلمان وشوقه كسيف من ضياء، شحذته اللهفة والصبابات الملتاعة التياعاً وجيعاً... قميصه المزركش ملائم... وبنطلونه أيضاً... وحذاؤه الجديد بعض الجدة... وشعره المسرّح، كل ملمح من ملامحه يقول: إن هذا السلمان، عاشق حتى آخر أنفاسه... وحتى أعمق أنفاسه... وحتى أعمق أعماقه. أحست سمر، وهي تلمح سلمان، يعبر السور مليحاً... شجاعاً... تسعى به أشواقه...

www.alkottob.com

وتطوف بروحه أحلام عاشقة... أحست وهي تراه، أن غيماً حنون المحيا.. بدأ يمطر كرماً عطشت أشجاره، حتى صار اليباس قريباً... بللت روحها... وامتلأت أذناها بنشيد صاحب شجرة التوت.

الهاجرة لم تؤذِ آمال العاشقين... وأنفاسهما المبللة بمطر الشوق... والمصطبة المغطاة بالأغصان مرتع طيب لصوت العشق الخائف والمطعون، بقدرة الحياة البائسة وظروف العيش. صافحها وارتعاش الحب يسري في كل شراييه وأوردته... وقد أشعره الارتعاش، بأنه ضعيف لا يستطيع النطق والفصاحة... كل الشجاعة التي أحسها وهو يصعد الحفاف ويتجاوز السور، تحولت إلى ارتعاش وخوف... وهذا هو قدر العاشق: حلمه شجاع لكنه في حضرة الحب... يدركه الخوف...

سمر لم تجد في نفسها رغبة الكلام... ولا قوة الإفصاح عن شوقها... الإفصاح عن الشوق شجاعة الشجاعات... هو كصدح الطائر الكبير الذي بحث عنه أحمد السعيد... والذي عاش غير بعيد عن شجرة أبي يوسف (شجرة التوت البرية).

ثوب سمر، رغم أنه قديم بانت أناقته... وبانت كياستها وهي ترتديه... عيناها اللتان ضوأت نظراتهما الفرحة والهناءة اليسيرة صارتا مبعث شغف... شعرها المتروك من غير تسريح... ليس فوضوياً إلى حد البشاعة بل هو مسترسل استرسالاً كافياً، لتحريض لهفة المحب... الذي لا يرى إلا الحسن والكياسة في حبيبته... استدارة وجهها ونضارته... وشفتاها اللتان لم تبتسما، أسرّتا لروح سلمان بالابتسام فصار يراهما كصورة فجر على مدخل ليل طويل....

أحلام وأحلام شغلته طوال الليل:

هل تكون سمر وحيدة... وهل أقول لها إنك حبيبتي... وسأحميك؟ وهل أسألها عن أمر زواجها ومحاولات زوجها السابق أن يرجع إليها أو ترجع إليه؟؟

وهل تفكر بالذهاب إلى حيث أختها جوهرة؟؟

هل تقبل بالسكن معي، في بيت أهلي؟؟

وهل قادر هو على إكمال ما ينقصها لتبقى جميلة؟..

وأحلام أخرى ضاعت في زحمة ارتعاش العاشق...

وأحلام فرت هاربة... وهو يعبر الدرب... ويصعد ويعاين. لمحا زوجة ابن الحمودة وزوجة ابن الأحمد ونبع الساقية...

www.alkottob.com

أحلامه أحس أنها صارت عارية أمام الجميع... وصار خائفاً من ملاحظة أي جار بعيد أو قريب...

سمر ليست أقل منه شوقاً وأحلاماً، لكنها أقل منه خوفاً، إذ أشبعتها الأيام شعوراً بأن الأحلام الجميلة مفضوحة وعارية... وكيف لا... وهي التي ذاقت ويل العيش في كنف والد بئيس الروح.. جرّعته الحياة الخيبة تلو الخيبة... فصارت روحه ملاذاً للخيبات ليس إلا.. وغير هذا فقد فجع حلم أحلامها يوم تزوجت... وفشل زواجها... وصار أمر زواجها كحكاية تتسلى بها الجارات... ومساءات وعشيات قرية شجرة التوت.

خفف عنها وطأة الفشل الفظيع، أنها يوم هربت كان أبو يوسف في بيته وقد التجأت إلى ضوئه هرباً من ليل تعاستها الداكن.. صور وأحداث... ظلت تراود خاطرها، وتشغل بالها... وهي تجلس قريبة من سلمان... تنظر إليه... وينظر إليها فتبتسم روحه وروحها... ابتسامة الأمل الملغوم بالمخاوف.

شبح موحش... والأشباح قليلاً تجيء مؤنسة... صوت ابن الأحمد... ظل رعاداً، يذيع الهلع، في نفس سمر... وإن هو لم ينادِ.. شبحه لم يغب... رغم أنه يبين لعينيها، وهو في الأرض القريبة من الساقية، شبحه يخيفها ويبعث على شعورها باليأس... لأنها لم تعرفه يوماً هادئ الطبع... لين المعاملة...

سلمان أفاقت في نفسه صورة غضب ابن الأحمد، فارتدت ابتسامة روحه هاجساً قلقاً، محاصراً بصوت الرعب... ونداءات الفشل...

زوجة ابن الحمودة وزوجة ابن الأحمد، قصدتا نبع الساقية، لملء جرتيهما ماء... الشجرات واضحة لعيني سلمان وعيني سمر. ودخان (الموتور) يصعد من جهة الساقية... يلوث هدأة بال حارة الساقية وطمأنينة المقبلين على النبع.

قامة زهوة أطول من قامة زوجة ابن الحمودة... وحق لها أن تكون قامتها أطول، لتوازي قامة ابن الأحمد... وحق لزوجة ابن الحمودة أن تكون قامتها أقصر، لأن قامة زوجها ليست طويلة... فكتب عليهما قصر القامة...

لكن قصر قامة زوجة ابن الحمودة لم يؤذِ طبعها... ولم يسِئ لمزاجها؛ فهي سوية المزاج... لا تتسع روحها للكره أو الأحقاد... بل تضمر . دائماً . المودة والحب تجاه جاراتها... حتى إنها عبر سنوات حياتها في قرية شجرة التوت، لم تحمل على جارة... ولم تختصم معها خصومة طويلة الأمد.. خصوماتها هادئة... وتأتي سريعاً... وتذهب سريعاً... قد تختلف مع زوجة كريم أو زوجة بو

www.alkottob.com

حمود من أجل الدجاجات، ثم لا تلبث أن ترجع المياه إلى المجاري... وكذا كان أمرها مع أم يوسف، التي لم تنسها من الشتائم، في عشيات كثيرة، وجدت فيها بعض دجاجاتها أو بعض الأفراخ غائباً... كانت زوجة ابن الحمودة، تنأى ما أمكنها عن الشتائم، تغلق أذنيها، لعلمها الأكيد أن أم يوسف لا تشتم أحداً كرهاً... بل شتائمها تأتي تنفيساً عن حالة غيظ لا تحتملها، حين يصيب الأذى أية دجاجة من دجاجاتها أو أي فرخ من أفراخها.. هي ارتضت لنفسها طواعية، أن تمشي وراء زهوة، لأنها تراها أجمل منها، ولأنها ترتاح لمعاشرتها... وتسعد نفسها لتبادل الأحاديث المتعلقة بالبيوت والجيران معها.

قالت سمر وهي تعاين أمها تسعى باتجاه الساقية ومن خلفها زوجة ابن الحمودة قالت:

. أساء ابن الحسن لكل قريتنا...

. زوجته الجديدة... هي التي قالت له: اسقِ الأشجار.

. سمعت أمي تتساءل أين ذهبت زوجة ابن الحسن (الغريبة)؟...

ـ حسان ولد كريم يعرف من أين هي زوجة ابن الحسن... وسمع أحاديث عن حياتها وعن أهلها، وعن زواجها...

. حسان متى يعود؟؟

. عاد منذ البارحة، واليوم سيزورهم أبو يوسف...

. هو أخبرك بذلك؟؟

. أمي أخبرت أسعد.

. أين هو أسعد؟؟

. انظري إلى حارة الساقية ألا ترينه يتجه إلى بيت ابن الصبرة... وعلى كتفه (التنكة) المخصصة للزيت.

نظرت سمر إلى حيث أشار سلمان، فبان أسعد وهو يسرح في جهات حارة الساقية... وبعد هنيهة ارتفع صوته بأغنية عتيقة:

"يا طير الطاير فوق البراري.

خبّر الحلوي واحملا خباري".

قالت سمر:

. أسعد يحفظ الأغاني ويغنيها ليسلي سمعه، ويقتل ضجره وخوفه...

www.alkottob.com

ـ أبو يوسف كان يحبه... كثيراً رأيته تحت أغصان شجرة التوت، وهو أول من أخبر أبا يوسف بزواجك في قرية (النبع العالي).

أخذت الهواجس مأخذها في رأس سمر، فذهلت عن سلمان، كمن أصابه دوار مفاجئ:

"تذكرت أيامها السوداء عند زوجها... وتذكرت القرية ونبعها العالي، وبيت أسعد المغلق أكثر الوقت... وتذكرت كيف صادفته، قرب النبع، وهو يحمل جرة فخارية ملأها ماء... كادت تسمع كلماته المضطربة:

. كيف أنت مع التعيس ولد التعيس؟..

. ...

. هل تحتاجين مني شيئاً... أنا أخدم كل من عاش في قرية شجرة التوت أو عرفها أو زارها...

تذكرت درب النبع المحفوف بالأغاني... والنداءات العالية؛ التي ترتد على أصحابها بالصدى، ليس إلا..."

أراد سلمان أن يرجع سمراً من ذهولها:

. هل رأيت أسعد صعد إلى المصطبة؟؟

. ابن الصبرة ليس في البيت...

. من قال لك: إنه ليس في البيت؟

. سمعت أبي يقول لأمي: ابن الصبرة باع أكياس القمح...

. لمن باعها؟؟

. لصديقه الذي في المدينة.

. يكون حمل الأكياس على جرار ابن الصالح الذي اشتراه منذ وقت؟؟...

. ابن الصالح وابن الصبرة متخاصمان من يوم (موتور) ابن الحسن.

ـ وأخو ابن الصالح، هو الذي يقود الجرار... وهو يقوده كما يقود الحمارة الكبيرة التي اشتراها من (الجبيلي) ولهذا لا يجرؤ على دخول المدينة بالجرار...

عادت زهوة وزوجة ابن الحمودة فازداد فزع سمر... وازداد حذرها... لكنها لم تصرح لسلمان بما يدور في بالها... واكتفت بأن نبهته إلى عودة أمها وزوجة ابن الحمودة:

www.alkottob.com

. رجعت أمي.

. قالت كلمتيها ولم تذكر زوجة ابن الحمودة.

ففهم سلمان مقصدها؛ وأخبرها بأنه فهم... وكيف لا يفهم ما أرادت، وهو الذي يحبها قبل الجميع... وبعد الجميع وأكثر من الجميع.

قال لها وقد همَّ بالنهوض عن الكرسي الخشبي الذي لامست مساميره قفاه ملامسة جادة، أكثر من الأدب الجاد...

الهاجرة بدأ حرها تخف شدته، أمام النسيم الذي داعب أغصان شجرات ابن الأحمد... سمر وقفت، ورجاءات طيبة تحاور نفسها، وتقف في مواجهة خيالاتها المرتجفة خوفاً، كأغصان الشجرات المرتجفة جراء مداعبة النسيم...

رجاءات سمر أهمها وأكثرها حضوراً وإلحاحاً أن تمر أمها على أي بيت من بيوت الجيران ليبقى الوقت مباحاً لوقفتها الشغوفة مع سلمان...ورجاء آخر أن يتأخر والدها في أرض الساقية ليطول بها وقت الطمأنينة.. ورجاء شغل عليها نفسها وهو أن يجيء أبو يوسف إلى القرية... وأن يعيد ما انهدم من جدران بيته، وأن تعود المصطبة والشجرة إلى سابق أيامهما.

طائر جناحاه حزن وشوق. خوف من صوت ابن الأحمد وقدوم زهوة ورغبة في البقاء. الطائر بقي يحوم قريباً من سمر وسلمان... ويزداد خفق جناحيه، كلما اقتربت زهوة من تخوم الحارة القديمة وكلما علا صوت ابن الأحمد أو همهماته عالية التوتر... كل شيء في حياته توتره عالٍ... عدا حبّه لأولاده توتره منخفض انخفاضاً بعيداً... وحبه للطير . أيضاً . معادلته الكبرى الذبح والأذية... فهو لا تصل يداه إلى جناحي طائر إلا أتت عليه أسنانه عضاً بشعاً...

تابعت زهوة سيرها شرقاً عبر درب الحارة العتيقة... وزوجة ابن الحمودة انعطفت غرباً... جرن القمح، على حاله لم ينقل من مكانه المجاور للمصطبة وجذع (التونة)...

راق لزهوة أن تنزل الجرة عن كتفها إلى جوار الجرن... وتستريح، وهواجسها الطيبة قريباً من الجذع وذكريات المصطبة والبيت المهجور...

هواجس زهوة، منذ وقت غير قريب طوت صفحة الغرام، وأغلقت آخر نافذة كانت مفتوحة على الشوق والغزل... وصارت تحس بالعداء تجاه أية نسمة، فيها غرام... وهي غريبة عن نسائم الحب والغرام، منذ دخلت دنيا ابن الأحمد المسيجة بالقسوة والجفوة والصوت العالي... دنياه كثيرة الشبه ببستانه المسيج بالعيدان

www.alkottob.com

والأشواك اليابسة... وفيها من التعاسات، ما يقتل أي حب وأية حالة غرامية، مهما اجتهدت وشفّت... ورقت حواشيها...

وكذا أمر زهوة في حياتها عند ابن الأحمد، الذي لم يبادلها الهوى أو الغزل... فقط أخبرها بأنه رغب أن ينالها بـ(قرصة) محترمة، تليق بجسدها الممتلئ... وأنوثتها الواضحة، هكذا بدأ الغرام بينهما... وهكذا استمر...

استراحت إلى جوار الجرن والجذع وقتاً قصيراً، وقد اختصرت استراحتها، مرغمة لا راغبة لأن صوت ابن الأحمد باغت هناءتها، وذبحها كذبحه لأي طائر تصل إليه يداه:

ـ يا زهوة يابنت حمدان... اللعنة على كتفيه ألم تذهبي إلى البيت.. وبنتك مثلك مشغولة...

لم تفهم زهوة ما قاله زوجها. واكتفت بأن حملت الجرة من جديد، وسعت مسرعة ما أمكنها السعي والإسراع باتجاه البيت... بيت ابن الحمودة والبيوت المجاورة له، لم تستوقفها... وكيف تستوقفها البيوت، وصوت زوجها يهيب بها ويخيفها، ويذيع في روحها صخباً قاسياً كشوك السور اليابس والمؤذي.

***

ابن الأحمد لمح سلمان وهو يتجاوز السور... وقدّر أنه قصد المصطبة، ليحكي لسمر عن حبه لها...

آذاه أن ترجع سمر إلى حب سلمان، وهي التي تزوجت وفشل زواجها، وفشلت حياتها... وخلقت له اضطراباً أضيف إلى رصيده الكبير من الاضطرابات.

ابن الأحمد لا يكره يوسف بو حمود، ولا ولده سلمان... ولا هو يحبهما أيضاً... هو لا يميز كثيراً بين الحب والكره... أيامه صفعته صفعاً، أفقده توازنه وأجمل الأحلام... ولا يمكن لواحد مثله عذبته الدنيا، وقتلت روحه... لا يمكن لأمثاله أن يفكروا بالحب... ولا يمكنهم أن يبرّروا لعاشق لهفته وشوقه...

تاهت أفكار ابن الأحمد... وغطت روحه غيمة سوداء لا مطر فيها ولا

www.alkottob.com

نبوءات رياح... واستبد بأنفاسه ضيق، الفلات منه أصعب من فلات الطائر المخدوع، من دبق (الجبيلي).. النبع ليس بعيداً عن أرض ابن الأحمد، والدرب المؤدي إليه منحدر تحيط به التخوم والأشجار... كل تخم يشكل حداً معلوماً... لكرم من كروم حارة الساقية... التخم الأول يفصل بين أرض ابن الأحمد والأرض التي أخذها ابن الحسن، وهذا التخم تميّزه شجرة البلوط ويميزه (توت سياج)، الكثيف، الذي يسقط فيه قرميد ورباب بين الحين والحين... وسقوطهما لا يأتي مصادفةً، أو سهواً... يسقطان إفرادياً أو معاً، حين يقبلان على ثمار (توت السياج) الناضجة، الملونة بألوان تبعث على الاشتهاء، وتحض الآكل على متابعتها... وحينذاك... لابد من السقوط في حومة الأغصان المتشابكة تشابكاً عجيباً، كتشابك شعر (رباب) المتروك من غير تسريح...

عاد قرميد ومعه الجرة الصغيرة مملوءة ماء من نبع الساقية... فاستوقفته ألوان الثمار الناضجة فأقبل عليها بهمة عرجاء... عوجاء... وقف على الحافة... وأمامه الأغصان المتشابكة والشائكة... قدم على التراب وأخرى دفع بها إلى الأمام ظناً منه أن الأغصان تستريح على التراب أيضاً... فأخطأ الظن، وهوى وسط الأغصان... والشوك بدأ يداعب جلده ووجهه مداعبة شائكة... فصرخ صرخة عالية... فبلغت سمع والده المغضب دائماً... وسمع رباب المنشغلة باقتلاع الأعشاب.. وقد أدركتها الهمة حالاً... وأسرعت إلى حيث سقط أخوها قرميد سقطة لاهوادة فيها...

هبطت الحافة... ووصلت إلى التخم وشجرة البلوط... قبل أن يتخذ والدها أي تدبير بشأن ولده الساقط في حومة أغصان شجرة (توت السياج).

والحظ العاثر، لا يمكن أن يصير غير عاثر بسهولة... وجهل رباب بواقع حال الأغصان والحافة... لا يقل عن جهل أخيها قرميد، الذي بدأ يصعد رويداً رويداً... والشوك يعذب جلده ووجهه على عجل... رباب أقبلت بسرعة، تبغي العون لأخيها... ونسيت أن الأغصان تخبئ تحتها الهاوية... وقد نادى عليها قرميد أن تتمهل، وأن تظل بمنأى عن الأغصان... لكنها لم تسمع النداء إلا بعد أن هوت بها شجاعتها الشاقولية جداً جداً... فدفعت بأخيها من جديد إلى سقوطه، ملغية محاولته وجهده في الصعود والخروج من واقع حاله وحومة الأغصان المتشابكة الشائكة...

www.alkottob.com

ملأ الهلع نفس ولدي ابن الأحمد، وهما ينظران إلى أبيهما، الذي أعلن عليهما السخط، وسخطه ليس هيناً.... ولا ينتهي سريعاً... حمل عصاه العنيفة، واتجه إلى حيث التخم وولداه... لكنه لم يصل إليهما، لأنهما شقا درباً شائكاً، وخرجا مسرعين، لا يعنيهما إلا الفرار... شاهد ابن الأحمد بيت ابن الحسن العالي... المسوّر بالأشجار... ...

وقف قرميد ورباب إلى جوار التخم الثاني، الذي يفصل أرض ابن الصالح عن أرض ابن الصبرة... وراق لهما أن يستريحا . قليلاً . قرب شجرات الدلب الكبيرة... وراق لهما أكثر أن يريا والدهما، هدأ غيظه... وانكفأ عائداً إلى حيث شجرات الزيتون.

شقيق ابن الصالح لمح ولدي ابن الأحمد، لكنه لم يسعَ إليهما، لانشغاله بالفلاحة على الحمارتين العجيبتين....

***

ذاكرة أبي يوسف لا تنام، ولا تمحى الأحداث والعناوين فيها. وهي كالأشجار... يتذكر بشجاعة كما ينسى بشجاعة... ويحتكم، حين ترجع به ذاكرته إلى الأيام والأحداث والناس يحتكم إلى نفسه وثقافته، حتى لا يخطئ في التقدير، أو يجور في المحاكمة... حتى لا يعطي للحزن إلا ماله... وللحبور ماله، ولنفسه مالها، وللآخرين مالهم.

راقه أن يمر على البيوت القديمة وهي لا تنفصل عن البيوت الحديثة، إلا ببعض التخوم والأشجار... مشى متمهلاً وفي رأسه تسبح ذكريات وأحداث، تجاوز بيت ابن الحمودة الجديد، ولم يكد ينظر إلى الفسحة التي أمام البيت، ولعله نظر من زاوية عينه، فلم يلمح أحداً، فاستمر في مشيته، أو لعله، وجد نفسه مع ذكرياته وأيام طفولته وحياته.

دمشق- السكن الجامعي- 1986.

www.alkottob.com

***

www.alkottob.com

رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية

شجرة التوت: رواية/ حسين عبد الكريم- دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2002
- 130 ص؛ 24سم.

1- 813.03 ع ب د ش

2- 813.009561 ع ب د ش

3- العنوان 4- عبد الكريم

ع- 2002/8/1448 **مكتبة الأسد**

❑❑

www.alkottob.com